# العلاج الرباني

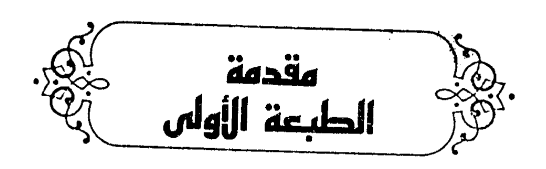
## لمرض العصر النفساني

## المال . الجاه . الجنس

تأليف
مصلح محمد

الروضة
للنشر والتوزيع






الحمـد لله بجميع المحـامد على سـائر النعم، اللهم اجعلنـا من عبـادك الحمادين. . والشكر لله على جزيل عطائه، إن كان عطاء يسد حاجة أو منعاً يصد ضرراً ويرفع أذى. . والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. .

وبعد. .

إن الإنسان لا يعلم إن كان خيره وصالحه واستقامة حاله فيما يدركه أو فيما يفوته من حاجات معيشته، فكثيراً ما كان في وفرة العطاء ابتلاء ينوء صاحبه به، وكان في المنع من الأغراض أقيم معاني العطاء. . فربما فقد رجل صغيره فتملكه الحزن والأسف لذلك وظل يحسب نفسه منع من عطية، وقد يكون فقد الولد ذلك رحمة من الله به وعطاء من حيث هو أخذ، فمن يدري إن كان الصغير سيشب بارا بوالديه أم سيحيل حياتهما جحيماً!. . وربما رجع الرجل آسفاً لفوات القطار الذي يوصله لمآربه في بلد آخر وحسب ذلك معاندة قدرية!. . ولما بلغته أنباء القطار المنكوب الذي فاته وضحاياه راح يحدث بالعناية القدرية التي شملته فحالت بينه وبين قطار الموت!!. . كثير من ذلك يحدث كل يوم، وما من أحد منا إلا وصادف في حياته المواقف التي تحمل مثل تلك المفارقات، لكننا سرعان ما ننسى ونعود لنأسف ونحزن على ما يفوتنا خاصة في مسألة الأرزاق. . ولو آمن الإنسان بأن الرزق مقسوم لارتاح وأراح وأدرك في محدودية حاله الكثير من العطايا الربانية. . **فما من أحد خارج مظلة الرعاية الإلهية. . أو ليس الله تعالى هو القائل: «قدرت المقادير ودبـرت التدبيـر، وأحكمت الصنع، فمن رضي فله الـرضى مني حتى**

يلقاني، ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني». . وهو القائل في كتابه العزيز:

**﴿وما من دابة في الأرض إلا وعلى الله رزقها﴾** [سورة هود، الآية: ٦].

**﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾** [سورة الزخرف، الآية: ٣٢].

فما من إنسان يبلغ غير ما قدر له، ولكن تبقى النفس الإنسانية تواقة تتهافت على عرض الدنيا. .

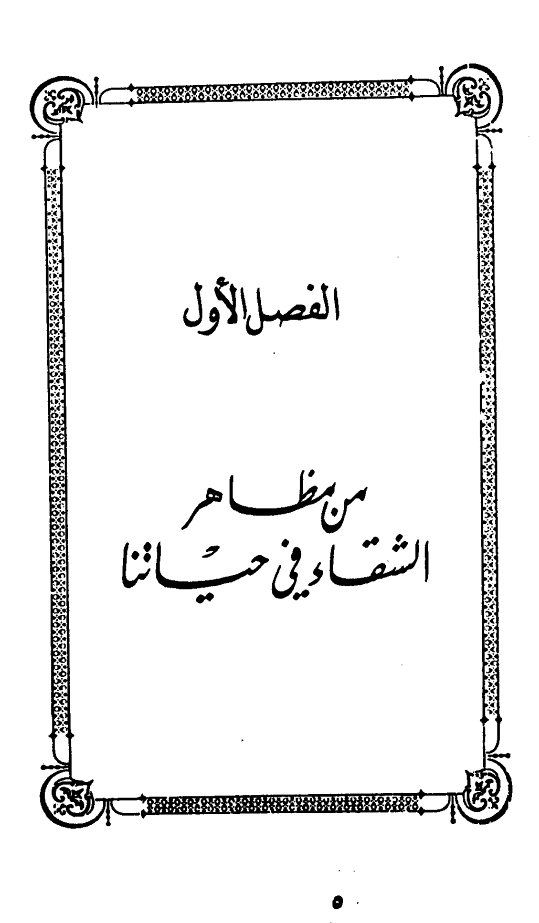
وفي دنيانا. . حياتنا المعاصرة كثرت أزماتنا وتنوعت من صراعاتنا المادية حتى غلبت مظاهر الشقاء أية مظاهر إيجابية إنسانية متصورة. . حتى في ذروة التنقيب عن السعادة نجدنا ندور في عوالم الشقاء! . . فعدنا ونحن في أوج الصراع نحو التحضر نحسب السعادة مسألة لحظية، أو هي كالومضات تبرق وتخفت وتتلاشى، وهي عند الغالبية من الناس مرهونة بقدرات مادية ومستويات رفاهة ورفاهية! . . ومن ثم عظمت القيم المادية وصارت المادة محور صراع الناس من إطلالة النهار حتى تخمد أجسادهم بالليل مكدودة. . وفي حياة على مثل هذه الشاكلة تقتل إنسانيات كثيرة وتزوي أخلاقيات وقيم وعادات وتقاليد. .

في عالمنا لا يمر يوم من غير أن تطالعنا تردياتنا دلالة على نوع صراعاتنا. . رشوة. . اختلاس. . احتكار. . سرقة. . تطاحن حول المناصب البيروقراطية ومواقع النفوذ والسلطان. . ظواهر اجتماعية غريبة لا حد لها. . زيجات عرفية. . زيجات متعة. . خيانات زوجية. . قتل أزواج وزوجات. . إلخ. .

كل هؤلاء. . جناة ومجني عليهم. . أحد منهم لم ينشد الشقاء، بل كانت البغية دائماً هي السعادة. . فمنهم من التمسها في المال وحده. . ومنهم من ارتآها في الجاه والسلطان، وآخرون حسبوها في ملذات جسدية. . لكنهم حصدوا الشقاء ليس غيره! . .

فكيف نستنقذ أنفسنا من مهالك تهافتنا؟ . . هل حقيقة هناك سعادة في **الدنيا؟ . . لحظية هي أم مستديمة؟ . . ثم. . أين هي؟ . . كيف نستعيد إنسانياتنا لتستقيم حياتنا ونجني ثواب الآخرة؟ . . تساؤلات نحاول أن نبلغ إجاباتها. . . .**

**المؤلف**



# الفصل الأول

## من مظاهر الشقاء في حياتنا

# من مظاهر الشقاء في حياتنا

مهمومون نحن.. كلنا أو معظمنا.. ألف همّ وهمّ فوق رؤوسنا.. الكبير والصغير لا يكف عن الشكوى من حال الزمان وتردي الأحوال.. غلاء المعيشة.. التفاوت الرهيب بين الدخول والأسعار.. العلاقات الاجتماعية الحميمة التي كنا نتميز بها عن غيرنا من الأمم وما آلت إليه من تفكك وتشرذم بل وفي أحيان كثيرة الصراع والخصومة إلى حد اللدد فيها!.. ارتفاع معدلات الجريمة.. القتل.. السرقة.. الاختلاس.. والخيانات الزوجية..

فهل جرى شيء للدنيا؟!.. خبلت مثلاً؟!.

أبداً.. لم تصب الدنيا بشيء.. وما ألم بها أي نوع أو قدر من الخبل.. الدنيا هي الدنيا.. إنما هم الناس.. الناس يتطورون للأسوأ.. ينخبلون بالدنيا ذاتها ومن الخبل بها تقسو القلوب.. ومن القلوب القاسية توقع كل شيء.. كل أنواع الجريمة.. جنايات وجنحاً ومخالفات وأنواعاً أخرى ما اعتدها القانون الوضعي لكن الله يحاسب عليها..

روي أنه لما بعث رسول الله ﷺ، قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو، فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري.. قال: أنا آتيكم بالخبر، فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمداً ﷺ، فجعل إبليس يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء، نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك، فقال لهم إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا.

وها هو قد صار ما أمله إبليس.. الجيل وراء الجيل ينفتح على الدنيا أكثر عن الذي قبله حتى غرقنا في متاهتها..

فما انفتاحنا على الدنيا، وانفتاح الدنيا لنا؟!.. إن كل ما يزيد على قدر قوت الإنسان وحاجته هو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب، فلو واتته زيادة في ماله انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى ضعف ما زاد في ماله فلا يكفيه بل يحتاج إلى مزيد ليشتري داراً يعمرها وليستخدم الخدم وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به، وذلك لا آخر له.

وقد روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوماً حجراً، فمر به إبليس فقال: يا عيسى رغبت في الدنيا؟، فأخذ عيسى عليه السلام فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدنيا.

وفي ذلك يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «.. وعلى الحقيقة من يملك حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه، فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب من حجر يمكن أن يتوسده، فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبة إلى النوم.. هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الوثيرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى؟..».

مع مثل حالنا يستطيع المرء أن يجزم بأن الكثرة منا هم الذين يجلبون الهم بإراداتهم ليحملونه فوق رؤوسهم ويفسحون له كل مساحة في صدورهم!.. فقد انبعثت من قلوبنا الشهوات، كل شهوة تحتاج أضعاف ما بأيدينا، وكل شيء لدينا صار يستدعي بإلحاح شيئاً آخر يليق به!!. وصار التطلع للرفاهة شاغلنا..

أما صادفك حوار لبعض معارفك، استعرض فيه أحدهم حجم ما أنفقه في بيته من مال والحاجات الملحة الباقية وتكاليفها التي قد تجاوز أضعاف ما أنفقه؟!.. ليرد البعض عليه بتلك العبارة التي طالما تناهت إلى مسامعنا «البيوت

خرارة»!.. والمقصود بالبيوت خرارة أنها كالشيء المفتوح من جهتين، جهة تضع فيها مادتك وأخرى يخر منها ما وضعته.. وهكذا متوالية.. أي أنه لن يأتي اليوم الـذي يمتلىء فيه البيت ويمتنـع عن قبول إضـافـة!!.. فمن عجـائب البيـوت والانشغال بتأثيثها أن إضافة قطعة أثاث، محض قطعة أثاث، تستدعي تغيير نظام المكان الذي يستوعبها بل وربما استدعت قطعاً أخرى من الأثـاث تكمل معهـا صورة مرغوبة، فسرعان ما ستتفتق الرغبات عن حاجات وحاجـات!.. وستظل البيوت خرارة!! وكأنها مكيدة شيطانية يجرنا بها الشيطان إلى متاهات لا آخر لها.

## وإليك من ذلك بعض وقائع:

مع بداية عصر الانفتاح الاقتصادي في بلدنا رصدت ظاهرة غريبة.. فلي أصدقاء كثيرون منذ عهد الطفولة، ولما شببنا والتحق كل منا بعمل تباعدت لقاءاتنا وقلت زياراتنا المتبادلة.. وأياً كانت الوظائف فهي تضم معظمنا لشريحة محدودي الدخل.. أقـول مع بـداية عصـر الانفتاح فـوجئت بأن أكثـر من بيت من بيوت أصدقائي مشغولون في تحـطيم دورات المياه بشققهم والعمـل دؤوب في لصق البلاط قيشاني والسيراميك بالأرضيات.. هكذا في نوع من التزامن وكأنها مهمة قومية!!.. أو هي محافظة القاهرة قد ألزمت شاغلي العقارات الواقعة في كردونها بهذا الإحلال ومن ثم صرفت مؤسسات الدولة وقطاعات العمل بها بدلات مالية لهذا الخصوص على موظفيها؟!.. وإلا فمن أين الزيادة التي طرأت على دخول متواضعي الحال هؤلاء ليوجهونها تلك الوجهة؟.. ولم تكن هناك أية زيادات أو بدلات فمعظمهم استقطع تكاليف الإحلال من قوته أو ألف مع البعض من معارفه جمعية أو استدان بقرض!!.

حقيقة دهشت وقررت أن أصل لسر هذا التزامن العجيب.. لكني لم أجد إجابة شافية لدى أحد من أصدقائي!.. فأحدهم زعم بأنه الذي اكتشف أن الحمام هو أهم موقع في البيت!.. وآخر فاجأه سؤالي وحيره فلم يجب بغير أن الذي قام به ما هو إلا نوعاً من المواكبة.. مظهـر اجتماعي يعني!.. أمـا أحد المعـارف الطيبين من محدودي الثقافة فراح يستخدم العبارات والحقائق في غير مواضعها

ويصف لي الحمام بأنه «بيت الراحة» وما دام هو كذلك فيجب أن يجد المرء راحته فيه كاملة لما تطأ قدماه السيراميك وتطالع عيناه حوائط القيشاني الملتانة تبرق و. . و. . أقول ما وجدت إجابة شافية حتى صادفت الإعلان التليفزيوني الذي يدعو الناس لتحطيم حماماتهم ويستعرض المنتج الجديد من القيشاني والسيراميك!. . إعلان يغري بحق. . وكم من إعلان يغري ويبعث التطلع لتغيير وإحلال أشياء وأشياء ما دامت الشهية قد انفتحت. .

ولن أزعم أن في ذلك مخالفة لطبائع الأمور، ولكن لنعتبرها فرصة للتأمل. . فيما التأمل؟!. . أناس نحن نعاني أزمة اقتصادية طاحنة وما يطلع علينا نهار إلا ويصرخ محدودو الدخل مطالبين بحقهم المهدور في تقريب المسافات بين الدخول والأسعار. . وأي أسعار؟. . إنها أسعار السلع الأساسية. . الطعام؟!. . ومع ذلك يبددون ما بأيديهم في الصرف على حمامات بيوتهم!!. . ليبقى الهم والشقاء يدق فوق الرؤوس بالحاجات الأساسية!. . ولنتذكر قول إبليس لشياطينه لما أرسلهم إلى أصحاب النبي ﷺ، فانصرفوا خائبين ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء، نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك. . فقال لهم إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا. .

وعن لسان أحد الإخوة الطيبين الذين أخذوا على عاتقهم جهد الدعوة الإسلامية في بلاد الدنيا المختلفة - تقبل الله جهودهم وأثابهم عنها خيراً - إنه في إحدى دول آسيا، وفي لقاء ببعض الإخوة المسلمين هناك، عرف مسلم آسيوي مسلمي مصر لإخوانهم الآسيويين بأنهم القوم الذين يستخدمون أجهزة التكييف حتى في حماماتهم!. . وربما كان ذلك من قبيل الملاطفة بين الإخوان. . وقد تكون حملت قدراً من المبالغة لكنها في الوقت نفسه لها دلالتها!. . إننا نمعن في الترفيه عن أنفسنا ونبالغ في الأخذ بأسباب الراحة. . وليحضرنا في هذا الشأن قول الإمام أبو حامد الغزالي:

إنه من يملك حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك في الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه، فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر

يمكن أن يتوسده فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبة إلى النوم، هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الوثيرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة، فمتى ينشط لعبادة الله؟!.

آه.. فقد امتكلنا إذا أوفر وأرقى عدة للشيطان علينا!!.

وصديق آخر عائد من ألمانيا - بلد صناع المرسيدس - وهي من دول أوروبا الغنية.. يقول إنه قلما شاهد السيارات ماركة مرسيدس في شوارع ألمانيا، وإنه لما التقى بأحد الأصدقاء من الألمان المهتمين بالشؤون الاقتصادية كاشفة بتلك الظاهرة التي رصدها بعيني رأسه.. فما كان تعقيب الرجل الألماني الذي زار عدداً من دول الشرق الأوسط مرات كثيرة؟.. قال الرجل إنهم في ألمانيا حقيقة ينتجون السيارات المرسيدس ولكنهم يستخدمون السيارات الرخيصة أو الشعبية. فلا يستخدم المرسيدس غير صفوة الصفوة وأكد الرجل لصديقه العربي أنه لما زار بعض البلدان العربية اكتشف رواج السيارة المرسيدس هناك بشكل ملفت للنظر حتى أنه كثيراً ما ساءل نفسه: كيف يشكون من ضوائق مالية وأزمات اقتصادية ويخرجون إلى دول أوروبا يتلقون المنح والقروض بينما السيارة الشعبية عندهم ماركة مرسيدس من آخر موديل؟!.

والحقيقة أن الرجل له الحق كل الحق في أن يندهش ويعجب من أحوالنا.. بلد يستورد ما يفوق عن الـ ٧٠ ٪ من احتياجه من الحبوب.. من الغذاء.. ومع ذلك يتعلق بأبهة الدنيا وأسباب الرفاهية؟!..

وتطالعنا وسائل أعلامنا بين الحين والآخر بجرائم الاختلاس واستغلال النفوذ والرشوة.. صغار موظفين وكبار مسؤولين اقتصاديين.. وليتصور المرء ماذا يبغي مسؤول اقتصادي كبير مفوض بحكم موقعه الوظيفي من الوزير.. يعني هو في مكانة وزير لتنفيذ قرارات الدولة الحامية لاقتصادها الوطني.. ماذا يبغي من التهافت على الرشاوى من أصحاب المصلحة في التحايل على قرارات الدولة وهو صاحب وضع مادي وأدبي متميزين؟!.. أليس هو الشره للمزيد من عرض الدنيا؟.. انفتحت له الدنيا فراح يغب من عرضها حتى أصاب منه إبليس حاجته..

هذا رجل مسؤول في عالمنا الحاضر.. فأين نحن من سلفنا الصالح الذين أعيوا شياطين إبليس حتى عادوا يقولون لزعيمهم: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء!.. أنهم صحابة رسول الله ﷺ.. منهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.. أمير المؤمنين في أوج عظمة الدولة الإسلامية وفتوحاتها، الذي رد أحد ثوبيه إلى بيت مال المسلمين لما تولى الإمارة!!.. يا الله.. إلى أي حد تردينا؟!!.

ولنقرأ شيئاً عن الزاهدة رابعة:

جلس أهل رابعة العدوية ذات عشية للطعام، ولكنها قبل أن ترفع أول لقمة إلى فمها نظرت إلى أبيها وقالت له:

ـ يا أبت لست أجعلك في حل من حرام تطعمني إياه.

فكف الرجل يده عن الطعام وسيطر عليه الوجوم وسألها:

ـ أرأيت يا رابعة إن لم نجد حلالاً أنقدم على الحرام؟

فقالت: يا أبت نصبر في الدنيا على الجوع خيراً من أن نصبر في الآخرة على النار.

وما زال عالم الجريمة يتسع ليستوعب من كل منا مغالطة لضميره ومخالفة لأوامر دينه بزعم ارتفاع تكاليف الحياة.. ومن ذا الذي قفز بتكاليف حياتنا تلك القفزة المجنونة؟!.

.. إنه منظورنا للحياة نفسه.. منظور خال من قناعة.. يستند إلى معطيات مادية تقوم الحياة بنعومتها والمستوى فوق حد الفقر والمستوى عند الرفاهية!.. كل ما نرغبه يخضع لنظرية العرض والطلب.. والطلب من شره نفوسنا كثير.. كلنا نطلب.. نطلب أي شيء ويرتفع سعر كل شيء أمام هذا التهافت الاستهلاكي الرهيب.. ومن عجب أن أعظم التهافت إنما هو لمظهر اجتماعي أو كما يسمونه «حضاري»!..

حكى لي أحدهم عن تجربة مر بها.. هو شاب يناهز الخامسة والثلاثين من

عمره. متزوج ويعول طفلين صغيرين.. موظف حكومي وزوجته أيضاً تشغل إحدى الوظائف الحكومية، وكانا قد بدءا حياتهما الزوجية بإمكانات متواضعة، إذ استأثر تدبير شقة الزوجية بأغلب مدخراتهما.. واستمرا رغم ذلك في ود وتعاطف يدعمون عشهم بقدر من التدبير وترشيد الإنفاق من دخلهما الثابت عن وظيفتيهما.. ومع تهافتهما على اقتناء أدوات منزلية مستحدثة وفرش أفضل إنزلقا للاستدانة بأقساط مشترياتهما العديدة حتى باتا يعانيان ضيق ذات اليد.. قال إنه يعرف في زملاء عمله من ارتقوا مادياً في سرعة البرق من خلال العمولات والرشاوى حتى أن منهم من يمتلك سيارة متوسط استهلاكها من الوقود والصيانة قد يتخطى قيمة راتبه الذي يتقاضاه عن وظيفته.. لكنه - محدثي - ليس من أهل الرشوة ولا سعى يوماً لتحقيق عمولات.. ولما واتته الفرصة لعمل إضافي في إحدى شركات القطاع الخاص حسب أن في ذلك العوض القدري لامتثاله وطهارة يده ومن ثم وافق وأيدته زوجته على الفور للانضمام إلى ذلك العمل الإضافي.. ولأدبه وحسن خلقه إلى جانب كفاءته في العمل أصبح قريباً من صاحب الشركة وصديقه في أوقات الفراغ، وبدأ يستقبل شكاوى مديره من ظروفه الاجتماعية المتعثرة لعجزه عن الإنجاب وبسبب منه حتى أنه - محدثي - تدخل أكثر من مرة للتوفيق بين مديره وزوجته إثر خلافات تقع بينهما!.. لكنه في الوقت ذاته بدأ يتبين اختلافاً في سلوك مديره إزاءه.. فالرجل وقد تعرف عن قرب ولمس مدى التوافق والسعادة اللذين يظلان بيت محدثي وزوجته وولديه بدا وكأنه يكيد له حسداً.. يعمد إلى تأخيره عن بيته كلما حل موعد انصرافه.. يؤخر عنه بعض مستحقاته المالية.. يميل إلى استفزازه وتعكير صفوه.. فأصبح لا يطيق صبراً على معاملة مديره.. ولكنه كلما فكر في فض هذه العلاقة بالامتناع عن العمل لديه استوقفته حاجته وحاجة بيته لأجر تلك الوظيفة الإضافية!.. وفي مرة صمم على التوصل لقرار حاسم فجلس إلى زوجته المتفهمة الودود يتدارسان الأمر.. بعد عام من العمل الإضافي، ما الإيجابيات وما السلبيات؟!.. كان أجر العمل الإضافي يتفوق على حجم الأقساط المدينين بها بقليل، ومن ثم اتزنت ميزانية البيت أمام أوجه الإنفاق العادية التي تحقق المتطلبات الأساسية غير بضع مئات توفرت إنفقاها في إعادة طلاء حوائط الشقة وتجميل بعضها بورق الحائط!.. خلاصة القول أنه

لم يطرأ ذلك التغيير الذي يعد جوهرياً ـ إيجابياً ـ على حياتهما بل إنهما كانا قد أعدا جدولاً بالإضافات التي يرغبون في تحقيقها لتحيل عشهم إلى جنة!! ورتبوها حسب الأولوية!.. خاصة وأنه قد بقي شهران لتنقضي معظم الأقساط التي تدينهم.. أي أنهما على وشك الدخول في دوامة أوسع تبتلع الأصلي والإضافي من الرواتب ليبقى ضيق ذات اليد!!.. ذلك بينما تخلفت سلبيات عن عمله الإضافي منها: إنه انشغل عن حياته الخاصة بتحقيق نجاحات وأرباح لصاحب العمل ومعالجة مشكلاته الاجتماعية التي لا تنفض، وكثيراً ما وافق ذلك أيام الراحات الأسبوعية!.. بات يشعر وكأنه غريب على طفليه فدائماً ما يعود ليلاً ويلقاهما قد خلدا للنوم.. بل هو وزوجته صارا وكأنهما انفصلا عن مجتمعهما، فلا هم يزورون أحداً ومن ثم أحد لا يزورهم إذ يخرج في الصباح ويعود في الليل بينما تعود زوجته من عملها عصر كل يوم لتضطلع بمهام الأم والأب لنجليها بقية النهار!.. بدا مرهقاً معتل المزاج في مرأى الآخرين ممن هم في دائرة معاملاته اليومية بل إن كثيرين راجعوه في التغييرات التي طرأت على ملمحه وأسلوب تعامله!.. وحده يعرف أسباب ذلك.. إنه يمضي نهاره في عمل دؤوب في حين يعتمد على وجبات تافهة من المطاعم ذلك غير الغم والكدر اللذين يعانيهما من سلوك صاحب العمل الإضافي حياله!.. وسبقت القرار استفسارات من الخاطر: لو أنني توقفت عن العمل الإضافي فهل نموت جوعاً؟!.. أبداً فلم يحدث أن تضورنا جوعاً في ظل أصعب الظروف المادية؟!.. ثم.. يفتقد بيتنا لشيء يحول بيننا وبين الاستمرار في حياة طبيعية؟!.. أبداً فكل أسباب حياة طبيعية مقضية بما بين أيدينا حتى لو كان بعضه أدوات تقليدية اعتدناها بل إننا كنا قد بدأنا حياتنا بأقل من ذلك إمكانات وكانت تسير بنا الحياة طبيعية!.. هل. وهل.. وهل؟.. إذن مما نخاف وعلى ماذا؟!.. لا شيء على الإطلاق!.. المطلوب أن نتوقف على السباق فحسب!.. سباق المظهر الاجتماعي والإمكانات!.. وقال: .. ولك أن تتصور مبلغ سعادتي عندما توصلت لهذه النتيجة.. كمريض شفي لتوه من علة مزمنة!.. وهنا أخذنا القرار.. الامتناع عن العمل الإضافي حتى ولو جاءني صاحبه يعرض أضعاف الراتب.. التفرغ لحياة اجتماعية هانئة كنا قد افتقدناها..

وقال: للحقيقة إنني بعد فترة طويلة من تنفيذ قراري أيقنت أنني قد نجوت من

مهالك، وأحمد الله أن تردت علاقتي بصاحب العمل إلى الحد الذي وضعني أمام خيارين لأحسم الموقف بقراري الموفق، فلولا استفزازاته ربما ابتلعتني الدوامة وحاقت بي المهالك!.

ولنتأمل قصة صديقنا تلك.. أنه قد قنع أخيراً وعن تجربة وممارسة.. ولعل ذلك يذكرنا بقول لحكيم:

ـ أربعة طلبناها فأخطأنا طرقها: طلبنا الغنى في المال، فإذا هو في القناعة، وطلبنا الراحة في الكثرة، فإذا هي في القلة، وطلبنا الكرامة في الخلق فإذا هي في التقوى، وطلبنا النعمة في الطعام واللباس فإذا هي في الستر والإسلام، يعني فيما يستر الله من العيوب والذنوب.

.. يالله.. واقرأ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبي ذر فقال: «يا أبا ذر إن بين يديك عقبة كؤداً، لا يصعدها إلا المخفون». قال: يا رسول الله. أنا من المخفين أو من المثقلين؟. قال: «أعندك طعام يومك». قال: نعم. قال: «وطعام غد» قال: نعم. قال: «وطعام بعد غد»؟. قال: لا. قال: «فلو كان عندك ثلاثة أيام كنت من المثقلين».

أقول: اقتنع صاحبنا.. وضع يده على قلب المشكلة، وإن لم يكن بدافع من وازع ديني أو منظور عقائدي.. حسبة بسيطة أجراها.. من نتائجها أنه لن يموت جوعاً بأي حال.. إن دخله المتواضع عن وظيفته ـ الذي لن يحرمه دوره الاجتماعي ويحفظ عليه كيانه وكرامته وصحته ـ يضعه عند حد الكفاف إن كف هو عن الصراع.. صراع المقتنيات النهم!. فهذا الصراع هو المشكلة.. بل أم مشاكلنا.. هو الدافع وراء كل الجرائم ربما بلا استثناء.. ووراء كل الترديات الاقتصادية والاجتماعية التي نعانيها.. نظرة إلى كثير من أسر انشغل أربابها طوال الوقت تكفي دلالة.. بل نظرة إلى جيل من أبناء المسافرين.. هؤلاء الذين يتركون وراءهم الحلائل والأبناء الصغار والشباب ينتظرون زيارة سنوية!.. ما أعقد المشكلات التي ستجدها.. الجميع يرغب في الوفرة المادية.. والوفرة يلزمها الانشغال ونتيجته موات اجتماعي.. الصلاة التي تقطعت.. والقيم التي

أهدرت.. والأمان الذي انعدم.. الرحمة والتعاطف والتواد الذين تبخروا من حياتنا.. غير الأسقام التي علقت بالنفوس: الحسد.. الحقد.. الغيرة.. الطمع.. الجحود.. من الحرص على الدنيا وعدم الاعتبار بالآخرة..

هذا قول بعض الحكماء:

«من كان عاقلاً فإنه يرضى بالقوت من الدنيا ولا يشتغل بالجمع، ويشتغل بعمل الآخرة، لأن الآخرة هي دار القرار ودار النعيم، والدنيا دار فناء وهي غدارة مفتنة».

وإلى قصة فيها عبرة:

حكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم، فقد حفروا قبوراً فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض.. وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذو القرنين.. فقال: ما لي إليه حاجة، فإن كان له حاجة فليأتيني!.. فقال ذو القرنين: صدق، فأقبل إليه ذو القرنين، وقال له:

- أرسلت إليك لتأتيني فأبيت، فها أنا قد جئت.

فقال له:

- لو كان لي إليك حاجة لأتيتك.

فقال له ذو القرنين:

- ما لي أراكم على حالة لم أر أحداً من الأمم عليها؟

قال: وما ذاك؟

قال: ليس لكم دنيا ولا شيء.. أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها؟

قال: إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل:

فقال ذو القرنين:

- ما بالكم قد احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها؟.

قال: أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل.

قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها؟!.

قال: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم العيش من الطعام وأياماً جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام.. ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال:

- يا ذا القرنين أتدري من هذا؟

قال: لا.. ومن هو؟!.

قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى، وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته.. تم تناول جمجمة أخرى بالية فقال:

- يا ذا القرنين، هل تدري من هذا؟

قال: لا.. ومن هو؟

قال: هذا ملك ملكه الله بعده، فقد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته، فصار كما ترى، قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته..

.. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال:

- وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع؟

فقال له ذو القرنين:

- هل لك في صحبتي فاتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما أتاني الله من هذا المال؟

قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً.

قال ذو القرنين:

ـ ولم؟!.

قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق.

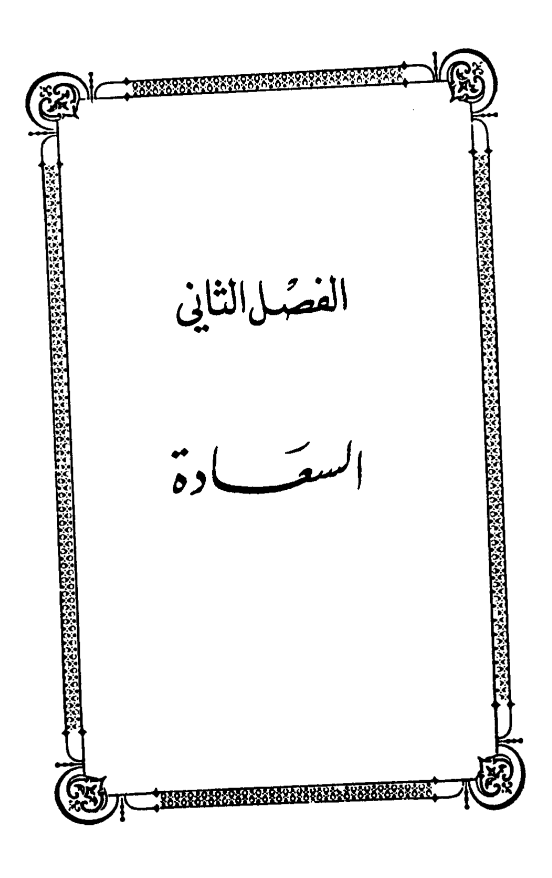
قال: ولم؟!.

قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا.. ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء.

.. فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به.

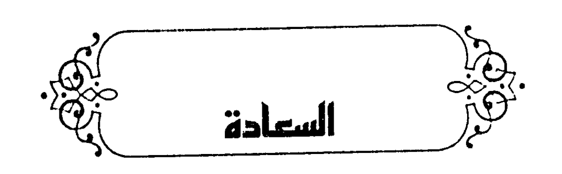
أي راحة تلك التي وجدها الرجل في القلة؟! الطعام طالما جاوز حنكه لن يجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام!.. وقبلها.. النظر إلى القبور.. أي الاعتبار بالآخرة يمنعه الأمل في الدنيا.. وتحرى العدل والتواضع.. ثم رفض الجاه والمال يمنعه العداوة من الناس ويكسبه صداقتهم ومحبتهم.. لماذا؟.. لأنهم.. أي الناس.. يعادون الملك والمال والدنيا!!..

ومع ذلك لسنا بصدد دعوة للزهد.. لتكن وقفة لاستعادة قدر من التواضع يرفع عن كاهلنا بعض الشقاء الذي نعانيه ويسقط عن رؤوسنا أغلب الهم بالدنيا.. فإنسان الحاضر لن يكف عن مطلبه في سعادة الدنيا.. ولكن.. ما هي السعادة؟.



# الفصل الثاني

# السعادة



# السعادة

السعادة.. سعادة الدنيا.. مطلب إنساني ملح.. هي المبتغى والهدف، حتى لو لم تتبلور فكرتها في مسمى واحد.. فربما حملت عند البعض مسميات أخرى، كالراحة أو الهناء.. إلى آخره.. غير أن المعنى في قرارة المفهوم الإنساني يبقى هو السعادة بكل أبعادها..

ولطالما ثار الجدل حول كنه السعادة.. فبعض أنكرها بزعم أن الدنيا دنيا شقاء ومكابدة!.. والبعض الآخر صورها على أنها حالات لحظية، تماماً كومضات من نور في طريق مظلم سرمدي.. وكثيرون أولئك الذين التمسوا لها أسباباً.. الثراء.. الجاه والمجد والزعامة.. القوة.. الجمال.. السلام.. تحقيق الآمال وبلوغ الغايات.. الصحة.. الشجاعة.. اللذة.. الهواية.. الشهرة.. ومن المفكرين من أكد على أن السعادة كالجمال.. مسألة نسبية.. فما الحقيقة إذن؟!.. هل توجد سعادة في الدنيا؟.. أسبابها.. حالها؟ إمكانية تحقيقها؟.. لحظية أم مستديمة؟!..

يقول الشيخ أحمد الشرباصي:

كل إنسان في الحياة يبحث جاهداً عن السعادة، ويود الوصول إليها، والحصول عليها مهما يكن الثمن..

وكثير من الواهمين يدعون أن السعادة لفظ لا حقيقة له.. وخيال يبتدعه الوهم ويكذبه الواقع.. ويظهر أن هؤلاء جاهلون أو مخادعون.. لأنه لا يعقل أن يخلقنا الله تبارك وتعالى في هذا الكون الفسيح المليء بالخيرات، والنعم والبركات، وهو يريد لنا جميعاً أن نشقى.. وكيف والله يقول لرسوله:

﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [سورة طه، الآية: ١، ٢].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن أتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ [سورة طه، الآية: ١٢٣].

وهو أيضاً يجعل الأشقياء أهلاً للنار فيقول:

﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ [سورة هود، الآية: ١٠٦].

كما يجعل الجنة للسعداء:

﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ [سورة هود، الآية: ١٠٨].

ولكن يظهر أن السعادة بين أيدي هؤلاء وهم عن الشعور بها أو الالتفات إليها غافلون..

وتعاليم الإسلام تهدينا إلى أنه لو نظر الإنسان الغافل إلى ذاته لوجدها مكونة من جسم همه الطعام والشراب والازدياد من الغذاء بلا ارعواء.. ونفس همها أن ترتع في الذنوب والآثام.. وقلب متقلب ينوء بما يحمل من هموم وما يصطنعه من أحزان وأشجان.. ولسان ينطلق باللغو فيجرح جراحات لا تقبل الالتئام.. وقد لاحظ هذا الطبيب الإسلامي المشهور «ثابت بن قرة»، فاستخرج منه الطريق الموصل إلى السعادة.. وصاغه في عبارة قليلة جليلة هي من خير ما يوضع أمام بصر المؤمن وبصيرته ليديم فيها تفكيره وتدبيره.. قال «راحة الجسم في قلة الطعام.. وراحة النفس في قلة الآثام.. وراحة القلب في قلة الاهتمام.. وراحة اللسان في قلة الكلام».

وصدق الحكيم اللبيب: «إن راحة الجسم في قلة الطعام»..

لأن الجسم آلة وقودها: طعامها.. والوقود يجب أن يعطى بمقدار. فإن زاد كان أخبث من النار.. والجسم حينما نطلق له العنان ليأخذ مشتهاه يكون نكبة على صاحبه.. يسلخه من الإنسانية، ويلحقه بالبهيمية.. وربما عجل له بالتلف والدمار..

والعقلاء هم الذين يأكلون ليعيشوا.. والسفهاء هم الذين يعيشون ليأكلوا.. من هنا قال القرآن الكريم:

**﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾** [سورة الأعراف، الآية: ٣١].

ويقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه فيما ينسب إليه:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

ويقول:

«المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء».

ويقول:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه.. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

وراحة النفس في قلة الآثام.. لأن النفس أمارة بالسوء.. وهي إذا تحررت من ضوابطها وانطلقت من عقالها.. جرت مع الشيطان في عنان.. فاختلست وانتهكت.. وغشت وخدعت.. وظلمت وأسرفت..

ولذلك كان أعدى أعداء الإنسان هوى نفسه.. إن استجاب لهذا الهوى قضى عليه.. وإن حال بين نفسه وبين هذا الهوى استقام على الطريق.

**﴿ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾** [سورة الشمس، الآيات: ٧، ٨، ٩، ١٠].

ويقول البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراحة القلب في قلة الاهتمام.. أي في قلة الهم والخوف والحزن.. لأن القلب الضعيف الجبان المنخوب يفتح على صاحبه دائماً أبواب الوهن والقلق.. ويحول بينه وبين البركات والمنن.. ويذوده عن مواطن العزم والإقدام.. فهو

حينئذ يخاف من الأوهام ويفزع من طيف في الظلام.. ويبيت في هم معقد مقيم.. لأنه من هلعه وفزعه يفكر في الماضي ويندم على ما فيه.. ويضيق بالحاضر.. فتضيع بهجته ويذهب بهاؤه.. ويتصور الغد المحجب سبعاً سيفتك به فلا يستريح.. وهو يخلق له من الناس أعداء بالحق وبالباطل.. ويحسب لكلامهم وهمسهم ألف حساب فيصيبه ألف عذاب.. وهو يطمع فيما لا ينال.. ويتعلق حلمه بالخيال.. مع إن ما لا يمكن أن يدرك، يمكن أن يترك.. وإذا لم يكن للمرء ما يريد، فليرد ما يكون.. وبذلك يتمتع الإنسان بحياته.. ويخضع أيامه لرضاه ومسراته.. ويستقبل المنحة خير استقبال.. ويحتمل المحنة أفضل احتمال.. وهذه نعمة لا يفوز بها إلا صاحب القلب الثابت على الرضا حظاً ونصيباً.. ومن هنا كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يكثر من دعائه:

«اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

ومتى ثبت القلب على عقيدته.. واعتصم بحبل ربه.. ولجأ إلى حماه.. فقد آوى إلى ركن شديد.. والإسلام يعلِّم أهله أمن النفس.. وطمأنينة القلب.. ورباطة الجأش.. فيقول القرآن الكريم في صفة المؤمنين:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وتطمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكرِ اللَّهِ ألاَ بِذِكرِ اللَّهِ تَطمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٢٨].

ويأمرهم بالابتعاد عن الحزن وأسبابه فيقول:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتمُ الأعلَوْنَ إن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٩].

ويقول في صفات أولياء الله تعالى: ﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [سورة يونس، الآية: ٦٢].

ويصف العباد المستقيمين بأنهم لا يخافون ولا يحزنون:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي

الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون. نزلاً من غفور رحيم﴾ [سورة فصلت، الآيات: ٣٠، ٣١، ٣٢].

وراحة اللسان في قلة الكلام.. لأن المكثار معثار.. واللسان إذا تعود الكلام المنطلق بلا ضابط كان مصيبة يحل فيها العزاء.. ولذلك أوصى الرسول ﷺ:

«إمسك عليك لسانك».

ولقد كان ابن عباس يأخذ بلسانه ويخاطبه قائلاً:

«ويحك.. قل خيراً تغنم.. واسكت على سوء تسلم.. وإلا فاعلم أنك ستندم». وقيل لأحد الحكماء: متى يصير الرجل قوياً؟..

فأجاب: «عندما يشتهي لسانه أن يقول كلمة غير حكيمة.. فيصده عنها في قوة واقتدار»..

هذا هو طريق السعادة في ضوء الدين.. فإذا اتقى الجسم الإسراف في الطعام.. واتقت النفس معاطب الآثام.. واتقى القلب اثقال الهم والاغتمام.. واتقى اللسان لغو الكلام.. فقد استقام المرء على الصراط.. وأصبح من السعداء.

إذن فسعادة الدنيا واقع وليست من قبيل الخيال أو الوهم.. سعادة لها وسائلها.. ليست لحظية بقدر ما هي مستديمة، وإنما يتعلق دوامها بدوام الأخذ بوسائلها والعمل بها.. وما كان فحوى استعراض الشيخ أحمد الشرباصي للسعادة ووسائلها؟.. ألمْ تكن مادته القناعة والاعتدال؟..

وها هو الدكتور عبد الحليم محمود يستعرض الحكيم سقراط والسعادة عنده...

«إن الحكيم في نظر سقراط ـ هو الذي يبنى سعادته لبنة لبنة.. حتى يقيمها صرحاً شامخاً.. يقوم على التفكير.. ويؤسس على التروي وإنعام النظر.. والسلوك الإنساني كله يهدف إلى غاية يتخبط الناس في الوصول إليها، لأنهم لا يقفون تجاهها موقف تفكير وترو.. تلك الغاية هي السعادة..

والضـلال فيما يتعلق بفهمهـا كثير. . فبعض النـاس يتـطلبهـا في الثـراء العريض. . فيقضون حياتهم في تكديس الأموال. . ويشغلون ليلهم ونهارهم في جمعها وعدها. . فلا يكـادون يفرغـون لأنفسهم لحظة مـا. . وبالتـالي يقضون عمرهم لا يعرفون معنى السعادة.

وبعض الناس يتطلبها بالجاه والمجد والزعامة. . فيصادفون الأخطار. . ولا ينعمون بالراحة. . وهدوء البال. .

وبعض الناس يتطلبها في الجمال الفاتن. . أو القوة الهرقلية. . وقد يؤديهم الجمال أو تؤديهم القوة إلى الشقاء. . وإلى البؤس. .

إستعرض سقراط كل هذه الآراء. . ونفى ـ في منطق بارع ـ أن تكون هي السعادة. . يقول سقراط:

«كم مرة كان الجمـال فيها ضحيـة لغاو متهتـك. . وكم مرة غـرت القوة أشخاصاً فتهوروا في مشاريع لا طاقة لهم بها. . فناء كاهلهم بالشقاء. . وكم من أشخاص بعث فيهم الثراء نوعاً من الرخاوة. . طغت مضاره على ما كانوا يأملونه من نعيم. . وكم من أشخاص كان إسمهم ملء السمع والبصر فكان مجدهم وثقة الناس فيهم عاملين في ضياعهم». .

وفكر سقراط طويلاً في عوامل الشقاء التي تجر العالم بإستمرار إلى حالة الضيق والبؤس. . فرأى أنها تتركز ـ أو تكاد ـ في الطمع والجشع الذي لا يتناسب مع الإمكانيات أو الإستطاعة الإنسانية.

أن كل إنسان ـ أيا كان ـ محدود الإستطاعة. . أما آماله ومطامعه ومطامحه فلا حدود لها. .

كل إنسان يريد أن ينال وينال. . حتى إذا ما أراد التنفيذ. . إرتطمت آماله بالواقع، فكان الشقاء. . الشقاء إذن: ثمرة لعدم تحديد الرغبات. .

فإذا ما حدد الإنسان رغباته بحيث تنسجم مع إمكانياته. . وإذا اقتصر الإنسان فيما يرجو ويأمل ويريد ويشتهي على الحد الذي يستطيع أن يحققه. . عاش راضي النفس مطمئناً. . أو بتعبير آخر: عاش سعيداً. .

ليست السعادة إذاً ناحية مادية. . وإنما هي حالة نفسية. . تتمثل في ضبط الرغبات. . حتى لا تخرج عن حدود الإستطاعة. . .

ولقد مثل سقراط ـ في نفسه ـ ذلك إلى حد بعيد. . لقد حدد رغباته. وكبح جماح نفسه. . وبلغ إلى ذلك ما يريد. .

ولكن هذه الحالة أثارت الاعتراضات على سقراط. . وكان رد سقراط على الاعتراضات قوياً. . منطقياً. . ممتعاً. .

## نذكر المثل الآتي:

هاجم «أنتيفون» سقراط قائلاً: «كنت أعتقد أن هؤلاء الذين يعتنقون الفلسفة هم أسعد الناس. . غير أنه يظهر لي أنك تستمد من الحكمة ما يناقض السعادة. . ولا ينتابني شك في أن العبد لو غذي كتغذيتك، لهرب من عند سيده. . إنك ترضى بغليظ الطعام وأردأ الشراب. . وتستخدم صيفاً وشتاء معطفاً واحداً لا يساوي شروى نقير. . إنك لا تنتعل. . ولا تلبس قميصاً».

ثم أضاف «أنتيفون»: «إذا كان هؤلاء الذين تخالطهم يشبهونك. . فتأكد إنك تعلِّم فن الشقاء».

وكان رد سقراط ما يلي: «إنني لا أشعر بالحرمان مما أرغب فيه. . أتحتقر طعامي؟. . هل يقل عن طعامك من الناحية الصحية. أو من الناحية الغذائية؟. . أصَعْب الحصول عليه؟. . أنادر هو؟. . أو أغلى؟. . أتجهل أن الشهية لا تحتاج إلى التوابل؟. . وإن من يشرب بلذة لا يفكر فيما لا يستطيع الحصول عليه من أنواع الشراب؟. . أرأيتني قط معتصماً بالبيت من البرد؟. . أو منازعاً أحداً الظل عند اشتداد الحر؟. . أو غير قادر على الذهاب حيثما أشاء بسبب جرح في قدمي»؟. .

وأجاب أخيراً بأن «أنتيفون» يخطيء في فهم طبيعة السعادة: «الرفاهية والأبَّهة. . تلك هي السعادة في نظرك. . أما أنا. . فأني أعتقد أنه إذا كان من خصائص الإله أنه لا يحتاج إلى شيء. . فإن مما يقرب من الألوهية ألا يحتاج الإنسان إلا إلى قليل. . وبما أنه لا أكمل من الله. . فإن القرب منه: قرب من الكمال».

وإذا كانت هذه هي السعادة في نظر سقراط، فإنه يوطد أركانها ويدعم من أسسها بالحث على الكثير من الفضائل الجميلة والأخلاق الكريمة..

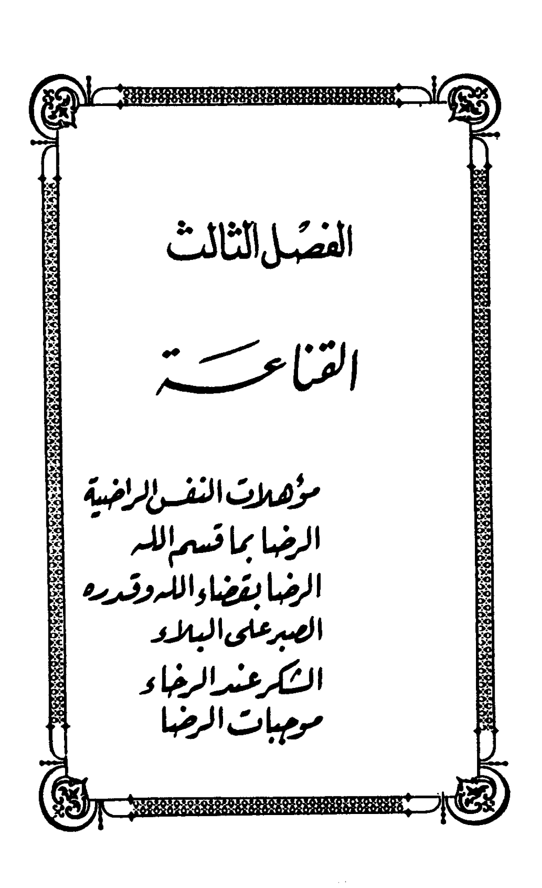
وكثيراً ما تحدث سقراط عن القناعة.. والقناعة تتلاءم كثيراً مع مذهبه في السعادة.. ولكن القناعة ـ عنده ـ ليس معناها الخمول.. فإنه يحث كثيراً على النشاط.. وعلى العمل.. ويرى أن الكسل يبعد الإنسان عن السعادة.. بقدر ما يبعده عن الخلق الكريم.

لقد عاش سقراط عيشة جميلة رائعة، وإذا فصل الناس بين مذاهب الفلاسفة وبين أعمالهم.. أو بين النظريات والواقع.. فإن سقراط كانت آراؤه أعمالاً له.. والتزم ـ ككل مصلح مخلص ـ كل ما ينصح به.. فعاش صادقاً صحيحاً نفسياً وجسمياً.. وحقق السعادة فوق ظهر هذه البسيطة التي يندر أن يوجد فيها الرجل السعيد».

هذا وإن طالعنا كل ما ورد عن الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين من كل الأزمان والعصور من آراء في السعادة وبواعثها ومسبباتها لوجدنا أن القناعة هي العمد الرئيسية في صرح السعادة بلا منازع.. هي ميزان المسألة.. هي الاعتدال.. هي الانسجام والتوافق.. بل هي السعادة متواصلة لا تبارح صاحبها..

ونحن خلق الله ننشد السعادة في دنيانا، لا ذنب في ذلك ولا غبار عليه.. ونأمل في ثواب الآخرة، وهو أمل مشروع تستوعبه ساحة العمل الصالح.. ونحن بين الحدين.. حد سعادة الدنيا.. وحد ثواب الآخرة.. يضنينا إيجاد التوازن بين العمل لسعادة الدنيا وثواب الآخرة.. أي أسباب السعادة في الدنيا تلك التي تؤجر في الآخرة؟!..

إن تناول ديننا الإسلامي الحنيف.. القرآن الكريم.. وسنة رسول الله ﷺ لمسألة القناعة.. وما ورد عن السلف الصالح والزهّاد ينير الطريق إلى آخرة أمام الباحثين عن سعادة الدنيا.. تلك السعادة المقترنة بثواب الآخرة.. القناعة.. نعم هي القناعة.. فما هي؟.. لنتعرف عليها..



# الفصل الثالث

## القناعة

مؤهلات النفس الراضية
الرضا بما قسم الله
الرضا بقضاء الله وقدره
الصبر على البلاء
الشكر عند الرخاء
موجبات الرضا



# القناعة

القُنُوع: السؤال والتذلل وبابه خضع فهو (قانع) و (قَنِع).

وقال الفرّاء: (القانع) الذي يسألك فما أعطيته قبله.

والقناعة: الرضا بالقسم وبابه سلم فهو (قنع) و (قنوع) و (أقنعة) الشيء أي أرضاه.

وقال بعض أهل العلم:

«إن القُنوع أيضاً قد يكون بمعنى الرِّضَا، والقانع بمعنى الرّاضي».

وأنشد:

وقَالُوا قَدْ زُهِيتَ فَقلتُ كَلاَّ ... ولَكنّي أعَزَّنِيَ القُنُوع

وقال لبيد:

فَمِنْهُمْ سعيدُ آخِذُ بنَصيبه ... ومنهم شَقيٌّ بالمعيشة قَانِع

وفي المثل: خير الغنى (القُنُوع) وشَرُّ الفقر الخُضُوع.

قال: ويجوز أن يكون السَّائلُ سُمِّي (قانعاً) لأنه يرضى بما يُعطَى قَلَّ أو كَثُر وَيَقْبَلهُ ولا يَرُدُّه... فيكون معنى الكلمتين راجعاً إلى الرضا.

## مؤهلات النفس الراضية:

**إن النفسَ الراضية هي النفسُ السامية التي ترضي بما قسم الله، وترضي بقضاء الله وقدره، وتصبر على البلاء، وتشكر عند الرخاء..**

.. هذه هي مؤهلات النفس الراضية:

١ ـ ترضى بما قسم الله.
٢ ـ ترضى بقضاء الله وقدره.
٣ ـ تصبر على البلاء.
٤ ـ تشكر عند الرخاء.

.. فأي من مؤهلات الرضا وبأي قدر حملت نفسك؟.. لتكن محاولة منك للتثبت من ذلك.. أسأل نفسك.. راض أنت بما قسم الله لك؟!! ودلل على ذلك ـ لنفسك ـ من سلوكك ونهجك في الحياة.. و.. راض أنت بقضاء الله وقدره.. من قلبك عن يقين؟.. صابر على البلاء عن غير مضض؟.. شاكر عند الرخاء.. ذلك الشكر الذي يتمثل في استخدامك للنعم في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل لا مجرد شكر بلسان: الحمد لله، الشكر لله؟!..

ولنا وقفة عند كل واحدة نستنير منها بالمعنى والمنزلة:

## الرضا بما قسم الله

يقال: سخط الله تعالى على العبد في ثلاثة أشياء:

**أحدها:** أن يقصر فيما أمر الله تعالى.

**والثاني:** أن لا يرضى بما قسم الله تعالى به.

**والثالث:** أن يطلب شيئاً فلا يجده فيسخط على ربه.

.. وفي قول الله عز وجل ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ [سورة المائدة، الآية: ٣٨].

... قال الفقهاء:

من سرق عشرة دراهم تقطع يده، وليست بهذه العشرة حرمة حتى تقطع يد الرجل المؤمن لأجلها.. ولكن تقطع يده لمعنيين:

**أحدهما:** لهتك حرمة المسلمين.

**والثاني: لأنه لم يرض بما قسم الله تعالى له ومال إلى مال غيره.**

**.. فأمر الله تعالى أن تقطع يده نكالاً بما كسب ليكون عبرة لغيره لكي يرضى بما قسم الله تعالى له.. وينبغي للمؤمن أن يكون راضياً بما قسم الله تعالى له.. فإن الرضا بما قسم الله له من أخلاق الأنبياء والصالحين.**

قال شقيق بن إبراهيم رحمه الله تعالى: سألت سبعمائة عالم عن خمسة أشياء، فكلهم أجابوا بجواب واحد:

قلت: من العاقل؟.. قالوا: العاقل من لم يحب الدنيا.

قلت: من الكيس؟.. قالوا: من لم تغره الدنيا.

قلت: من الغني؟.. قالوا: الذي يرضى بما قسم الله له.

قلت: من الفقيه؟.. قالوا: الذي يمتنع عن طلب الزيادة.

قلت: من البخيل؟.. قالوا: الذي يمنع حق الله تعالى من ماله.

وعن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: قدَّرت المقادير ودبَّرت التدبير، وأحكمت الصنع، فمن رضي فله الرضا مني حتى يلقاني، ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني.

ورُوي أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أنْبَت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً.. فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً.. فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً.. فتقول الملائكة: مِن أمة مَنْ أنتم؟ فيقولون: مِن أمة محمد ﷺ.. فتقول: ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا. فيقولون: خصلتان كانت فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل ورحمة الله.. فتقول: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا.. فتقول الملائكة: يحق لكم هذا».

**قال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك.. فالديك يوقظهم للصلاة.. والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم.. والكلب يحرسهم،**

فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له، وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً. . . ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك، فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي مَنْ حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة. . فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدر الله تعالى.

و. . . قيل أنه لما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ـ وقد كان كف بصره ـ جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا ـ وكان مجاب الدعوة ـ قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟. . قلت: نعم، فقلت له: يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك؟!. . فتبسم وقال: يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري!.

و. . هذا أحد العباد قال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ـ وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان، ليته لم يكن!.

وعن الرضا عند رابعة العدوية يتحدث مالك بن دينار فيقول:

«ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومخدتها من اللبن (الطوب النيء). . فقلت وقلبي يغلي: يا رابعة!! لي أصدقاء أغنياء، فإن سمحت لهم أن يعطوني شيئاً من أجلك. فقالت رابعة، وهي تتنهد أسفاً: لقد أسأت القول يا مالك. إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزقهم أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته، فنحن من جانبنا نرضى عنه كل الرضا».

وقد روي في الإسرائيليات، أن عابداً عبدَ اللّهَ دهراً طويلاً فأري في المنام: فلانة الراعية رفيقتك في الجنة. فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثاً لينظر إلى عملها. . فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة ويظل صائماً وتظل مفطرة. فقال:

أمالك عمل غير ما رأيت؟ فقالت: ما هو والله إلا ما رأيت لا أعرف غيره، فلمْ يزل يقول: تذكري، حتى قالت: خصيلة واحدة هي في، إن كنت في شدة لم أتمنْ أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمنْ أن أكون في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل.. فوَضع العابدُ يده على رأسه وقال: هذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وفي الأخبار السالفة أن نبياً شكا إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله تعالى إليه: لِمَ تشكو، هذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة. و.. قيل لبعض الحكماء:

«أي شيء أسر للعاقل وأيما شيء أعون على دفع الحزن؟

فقال:

«أسرها إليه ما قدَّم من صالح العمل.. وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء».

وفي ذلك قيل:

حتى متى أنا في حِل وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفَك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة ... إن القنوع الغني لا كثرة المال

.. وقد روي أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟.. قال: أقنعهم بما أعطيته.. قال: وأيهم أعدل؟.. قال: من أنصف من نفسه. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟.. قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك. وفي ذلك قيل:

العيش ساعات تمر وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه ذهب وياقوت ودر

وقيل أيضاً:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحل بساحتها لم يلق في دهره شيئاً يؤرقه

.. هذا بعضُ مما ورد في الرضا بما قسم الله.. نستبين منه المعنى وأهمية الرضا بما قسم الله عند المؤمن، ومنزلته عند الله.. وكنا قد سألنا قبلًا: راض أنت بما قسم الله لك؟.. فالآن يصح أن تجيب بنفسك ولنفسك عن السؤال مدللاً على ذلك من سلوكك ونهجك في الحياة.. ولك فيما ورد ومضات تستضيء بها: قول الفقهاء في قول الله عز وجل ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾.. وإجابة سعد بن أبي وقاص لما سأله عبد الله بن السائب: يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فَرَدَ الله عليك بصرك؟!... وذلك العابد الذي بكى ستين سنة واجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذنب هو أنه: قال مرة لشيء كان، ليته لم يكن.. وقول رابعة العدوية لما عرض عليها مالك بن دينار معونة أصدقائه الأغنياء!.. وتلك العابدة التي إن كانت في شدة لم تتمن أن تكون في رخاء، وإن كانت في الشمس لم تتمن أن تكون في الظل، وإن كانت في مرض لم تتمن أن تكون في صحة!.. ثم.. الحكمة في أبيات الشعر التي مرت بنا....

وإلى المؤهل الثاني من مؤهلات النفس الراضية:

## الرضا بقضاء الله وقدره:

يُروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، إنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سروراً أبداً منه!.. فقيل له في ذلك، فقال إنما كان حزني رحمة له، فلما وقع أمر الله رضينا به.

وروي عن مسلم بن يسار أنه قال: قدمت البحرين فأضافتني امرأة لها بنون ورقيق ومال ويسار فكنت أراها محزونة، فلما خرجت من عندها قلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، إن أنت قدمت بلدتنا هذه أن تنزل عليّ. فغبت عنها كذا وكذا سنة ثم أتيتها فلم أر ببابها إنسياً، فاستأذنت عليها فإذا هي ضاحكة مسرورة. قلت لها: ما شأنك؟ قالت:

ـ انك لما غبت عنا لم نرسل في البحر شيئاً إلا غرق، ولا في البر شيئاً إلا عطب، وذهب الرقيق، ومات البنون.

فقلت لهـا: يرحمـك الله، رأيتك محـزونة في ذلـك ومسـرورة في هـذا اليوم...

فقالت: ـ نعم، إني لِما كنت فيه من سنة الدنيا خشيت أن يكون الله قد عجل حسناتي في الدنيا، فلمّا ذهب مالي وولدي ورقيقي رجوت أن يكون الله قد ادخر لي عنده خيراً ففرحت.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومَن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله تعالى، ومن تواضع لغنى لينال ما في يده أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطى القرآن فدخل النار أبعده الله من رحمته»..

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

«أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفـوظ إني أنا الله لا إلـه إلا أنا ومحمد رسولي، من استسلم لقضائي وصبر على بـلائي وشكر نعمـائي، كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ إلهاً سوائي».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر».

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: «ما يقضي الله».

وقال ميمون بن مهران: «من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء».

ومن دعاء الرسول ﷺ:

«اللهم أسألك الرضا بعد القضاء».

.. وإلى المؤهل الثالث من مؤهلات النفس الراضية:

## الصبر على البلاء

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شكا نبي من الأنبياء إلى ربه فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك، تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترىء على معاصيك، تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا... فأوحى الله تعالى إليه: إن العباد لي، والبلاء لي، وكل يُسبِّح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له السيئات فأبسط له في الرزق فأزوي عنه البلاء حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته.

وروي عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: آتينا رسـول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه، فقلنا: يا رسول الله ألا تدعو الله؟ ألا تستنصر الله لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال: «إن من كان قبلكم.. كان ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفرة، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعـل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه».

وعن حميد عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «يؤتى يـوم القيامة بأنعم أهل الأرض، فيغمس في النار غمسة فيخرج أسود محترقاً فيقال له: هل مرَّ بك نعيم قط إذ كنت فيها؟ فيقول: لا لم أزل في هذا البلاء منذ خلقتني، ويؤتى بأشد أهل الدنيا بلاء فيغمس في الجنة غمسة، يعني يدخل فيها ساعة، فيخرج كأنه القمر ليلة البدر، فيقال له: هل مر بك شدة؟ فيقول: لا لم أزل في هذا النعيم منذ خلقتني».

ذكر في الخبر أن مؤمناً وكافراً في الزمن الأول انطلقا يصيدان السمك، فأخذ الكافر يذكر آلهته فما رفع شبكته حتى أخذ سمكاً كثيراً، وجعل المؤمن يذكر الله فلا يجيء شيء، ثم أصاب سمكة عند الغروب واضطربت فـوقعت في الماء،

فرجع المؤمن وليس معه شيء، ورجع الكافر وقد امتلأت شبكته. فأسف ملك المؤمن الموكل به. فلما صعد إلى السماء أراه الله سكن المؤمن في الجنة فقال: والله ما يضره ما أصابه بعد أن يصير إلى هذا. وأراه مسكن الكافر في النار، فقال والله ما يغني عنه ما أصاب من الدنيا بعد أن يصير إلى هذا.

وروي في الخبر أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ [سورة النساء، ، الآية: ١٢٣]، قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تنصب؟ أليس تحزن؟ فهذا ما تجزون به «. . يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية خرج علينا رسول الله ﷺ وقال: «قد نزلت عليّ آية هي خير لأمتي من الدنيا وما فيها»، ثم قرأ هذه الآية ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، ثم قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً فتصيبه شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً».

قال شقيق البلخي: من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها».

وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر».

وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم أرض عني، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة».

ويقول ابن قيم الجوزية في الصبر:

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في نحو تسعين موضعاً وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

**الأول:** الأمر به، نحو قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٣] وقوله ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة

البقرة، الآية: ٤٥]، وقوله ﴿اصبروا وصابروا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠]، وقوله ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢٧].

**الثاني**: النهي عن ضده، كقوله **﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم﴾** [سورة الأحقاف، الآية: ٣٥]، وقوله **﴿ولا تولوهم الإدبار﴾** [سورة الأنفال، الآية: ١٥] فإن توليه الإدبار: ترك للصبر والمصابرة، وقوله **﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾** [سورة محمد، الآية: ٣٣]، فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها، وقوله **﴿فلا تهنوا ولا تحزنوا﴾** [سورة آل عمران، الآية: ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

**الثالث**: الثناء على أهله، كقوله تعالى: **﴿الصابرين والصادقين﴾** [سورة آل عمران، الآية: ١٧] وقوله: **﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صبروا وأولئك هم المتقون﴾** [سورة البقرة، الآية: ١٧٧] وهو كثير في القرآن.

**الرابع**: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: **﴿والله يحب الصابرين﴾** [سورة آل عمران، الآية: ١٤٦].

**الخامس**: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم. ليست معية عامة، وهي معية العلم، والإحاطة، كقوله: **﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾** [سورة الأنفال، الآية: ٤٦] وقوله: **﴿والله مع الصابرين﴾** [سورة الأنفال، الآية: ٦٦].

**السادس**: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله: **﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾** [سورة النحل، الآية: ١٢٦] وقوله: **﴿وإن تصبروا خيراً لكم﴾** [سورة النساء، الآية: ٢٥].

**السابع**: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: **﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** [سورة النحل، الآية: ٩٦].

**الثامن**: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾** [سورة الزمر، الآية: ١٠].

**التاسع**: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى: **﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وبشر الصابرين﴾** [سورة البقرة، الآية: ١٥٥].

**العاشر**: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: **﴿بلى، أن تصبروا وتتقوا، ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾** [سورة آل عمران، الآية: ١٢٥] ومنه قول النبي ﷺ «وأعلم أن النصر مع الصبر».

**الحادي عشر**: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾** [سورة الشورى، الآية: ٤٣].

**الثاني عشر**: الإخبار أنه ما يلقي الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: **﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً. ولا يلقاها إلا الصابرون﴾** [سورة القصص، الآية: ٨] وقوله: **﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾** [سورة فصلت، الآية: ٣٥].

**الثالث عشر**: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: **﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور، وذكرهم بأيام الله، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾** [سورة إبراهيم، الآية: ٥].

**الرابع عشر**: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾** [سورة الرعد، الآيات: ٢٣، ٢٤].

**الخامس عشر**: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تنال الأمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى: **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** [سورة السجدة، الآية: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر».

وعن الرسول ﷺ أنه قال:

«عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء، شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له».

وأخبر ﷺ ان الصبر خير كله، فقال: ما أُعطي أحدٌ عطاء خيراً له وأوسع: من الصبر».

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الطير مطية لا تكبو».

وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال «أمؤمنون أنتم، فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله، قال: وما علامة إيمانكم؟، قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ «مؤمنون ورب الكعبة».

وقال ﷺ «في الصبر على ما تكره خير كثير».

وقال المسيح عليه السلام: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون».

وقال رسول الله ﷺ «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين».

وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري «عليك بالصبر وأعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر. الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. وأعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل والبر والتقوى بالصبر».

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي في معرض حديثه عن الصبر:

«فقد يقل الجهد ويجل الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الحظ، والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن، فإنها توازي أعمـال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد. نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا (يقصد اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش) فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين، وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها، فقطع العلاق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها» وذلك لأن تلك النفحات والجذباب لها أسباب سماوية، إذ قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٢٢] وهذا من أعلى أنواع الرزق، والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق. فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر، فكذلك فلما تجلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذباب ونفحة من النفحات: فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرض لمآب رياح الرحمن.

قال رسول الله ﷺ «قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله وولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

وقال ﷺ «انتظار الفرج بالصبر عبادة».

وقال: ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى «إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهم اؤجرني بمصيبتي وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك».

وقال: «يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكن إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتي».

قال داود عليه السلام: يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب

ابتغاء مرضاتك قال «جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً».

وإلى المؤهل الرابع من مؤهلات النفس المرضية

## الشكر عند الرخاء

قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت فكيف شكرك؟... فقال الله عز وجل: «علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكراً».

وقال النبي ﷺ لرجل: كيف أصبحت؟ قال بخير، فأعاد ﷺ السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال ﷺ: «هذا الذي أردت منك».

وقال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي!.. فقال: أشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟!.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر.

وفي منزلة الشكر يقول ابن قيم الجوزية:

«... وهو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر..

وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزاءه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده... قال الله تعالى: **﴿واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾** [سورة النحل، الآية: ١١٤].. وقال: **﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾** [سورة البقرة، الآية: ١٥٢].. وقال عن نوح عليه السلام **﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾** [سورة الإسراء، الآية: ٣].. وقال تعالى: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وجعل لكم السمع والأبصار**

والأفئدة. لعلكم تشكرون﴾ [سورة النحل، الآية: ٧٨] وقال عن خليله إبراهيم ﷺ ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢١]. . وقال تعالى: ﴿واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٧]. . وقال تعالى: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٤]. . وقال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٧]. . وقال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٥].

وسمى نفسه «شاكراً» و«شكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الإسمين، فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر مشكوراً كقوله: ﴿إن هذا كان لكم جزاء، وكان سعيكم مشكوراً﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٢٢] ورضي الرب عن عبده به، كقوله: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ [سورة الزمر، الآية: ٧]. . وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم أهم خواصه، كقوله: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سورة سبأ، الآية: ١٣]. . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ «أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟. فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

وقال لمعاذ: «والله يا معاذ، إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ «كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر علي، وأمكر لي ولا تمكر بي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك، شكاراً لك، ذكاراً لك، رهاباً لك، مطاوعاً لك، مخبتاً إليك، أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري».

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي في معرض حديثه عن الشكر:

«وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء، فالأحرى بالعبد أن يحسن الصبر على البلاء والقضاء، وإن أفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء، وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح، قال الله تعالى: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٧]. . وقال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٩٤].

أعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت منها وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً، فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها، فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينيه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في الأحوال

فلم يعده الجاهل نعمة، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً، حتى إذا ترك ضربة ساعة تقلد به منة، فإن ترك ضربة على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال: لا، فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً..؟!..

## موجبات الرضا

بعد مؤهلات النفس الراضية التي هي: الرضا بما قسم الله، الرضا بقضاء الله وقدره، الصبر على البلاء، الشكر عند الرخاء.. بعد ذلك يكون من المناسب أن نستعرض شيئاً، هو موجبات الرضا.. أو.. لماذا يرضى الإنسان؟.. أو.. قناعات الراضي من نفسه الراضية..

يقول الإمام ابن قيم الجوزية:

**أحدها**: إنه مفوض ـ أي الإنسان ـ والمفوض راض بكل ما اختار له من فوض إليه، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته، ولطفه وحسن اختياره له.

**الثاني**: إنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه، وإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو يعلم أن كلًّا من البلية والنعمة بقضاء سابق، وقدر حتم.

**الثالث**: إنه عبد محض. والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن. بل يتلقاها كلها بالرضى به وعنه.

**الرابع**: إنه محب. والمحب الصادق. من رضي بما يعامله به حبيبه.

**الخامس**: إنه جاهل بعواقب الأمور.. وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

**السادس:** إنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها، فهو جاهل ظالم، وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب، قال الله تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٦].. وقال تعالى: ﴿**وإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ [سورة النساء، الآية: ١٩].

**السابع:** إنه مسلم. والمسلم من قد سلم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك.

**الثامن:** إنه عارف بربه، حسن الظن به، لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته واقداره، فحسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

**التاسع:** إنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضى وسخط، فلا بد له منه، فإن رضى فله الرضى، وإن سخط فله السخط.

**العاشر:** علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة، وخفف عليه حمله، وأعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه قله وكله، ولم يزدد إلا شدة فلو أن السخط يجدي عليه شيئاً لكان فيه راحة، أنفع له من الرضى به.

«ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له، كما قال النبي ﷺ «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له. وإن أصابته سراء شكر. فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمنين».

**الحادي عشر:** أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يجب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه، فلا تتم له عبوديته ـ من الصبر، والتوكل، والرضى، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها ـ إلا بجريان القدر له بما يكرهه، وليس الشأن في الرضى

بالقضاء الملائم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

**الثاني عشر**: أن يعلم إن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق، رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه.

**الثالث عشر**: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه: في الرضي عن ربه تعالى وتقدس في جميع الحالات.. فإن الرضى باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا.. فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه. وأن لا يستبدل بغيره منه.

**الرابع عشر**: أن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضى يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

**الخامس عشر**: إن الرضى يوجب له الطمأنينة، وبرد القلب، وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

**السادس عشر**: إن الرضى ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة: استقام، وصلحت أحواله، وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته، وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش، فمن أعظم نعم الله على عبده: تنزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها: الرضى عنه في جميع الحالات.

**السابع عشر**: إن الرضى يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى. وكلما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضى. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى.

**الثامن عشر**: إن السخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه. والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه. وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه. فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات، استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضى.

**التاسع عشر**: إن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه، فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً، فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث في الترمذي ـ أو غيره «إن استطعت أن تعمل بالرضى مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً».

**العشرون**: إن الرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من سعادة ابن آدم: استخارة الله عز وجل. ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله. ومن شقوة ابن آدم: سخطه بما قضى الله. ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله».. فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة.

**الحادي والعشرون**: إن الرضى يوجب له أن لا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما أتاه وذلك من أفضل الإيمان.. أما عدم أساه على الفائت: فظاهر وأما عدم فرحه بما أتاه: فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله. فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولابد؟.

**الثاني والعشرون: إن ملأ قلبه من الرضى بالقدر: ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعة. وفرغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، ومن فاته حظه من الرضى: امتلأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.. فالرضى يفرغ القلب لله، والسخط طفزع القلب من الله.**

**الثالث والعشرون**: إن الرضى يثمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده، وهو كفر النعم. وربما أثمر له كفر المنعم. فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين. وإذا فاته الرضى: كان من الساخطين وسلك سبيل الكافرين.

**الرابع والعشرون**: إن الرضى ينفي عنه آفات الحرص والكلب على الدنيا وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية، وأساس كل رزية. فرضاه عن ربه في جميع الحالات: ينفي عنه مادة هذه الآفات.

**الخامس والعشرون**: إن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولا سيما إذا استحكم سخطه. فإنه يقول ما لا يرضى الرب، ويفعل ما لا يرضيه. وينوي ما لا يرضيه. ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم «يحزن القلب وتدمع العين. ولا نقولا إلا ما يرضي الرب». .

**السادس والعشرون**: إن الرضي هو اختيار ما اختاره الله لعبده، والسخط كراهة ما اختاره الله له، وهذا نوع محادة، فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن الله في جميع الحالات.

**السابع والعشرون**: إن الرضى يخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه، أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه، فلا يجتمع الرضى وإتباع الهوى في القلب أبداً، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو الغالب عليه منهما.

**الثامن والعشرون**: إن الرضى عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه ـ كما تقدم بيانه في الرضى به ـ فإن الجزاء من جنس العمل. وفي أثر إسرائيلي أن موسى عليه الصلاة والسلام «سأل ربه عز وجل: ما يدني من رضاه؟ فقال: إن رضاي في رضاك بقضائي».

**التاسع والعشرون**: إن الرضى بالقضاء أشق شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قط حتى

ترضى بالقضاء. فحينئذ تستحق أن يقال لها «يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية.. فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي».

**الثلاثون**: إن الراضي متلق أوامر ربه ـ الدينية والقدرية ـ بالانشراح والتسليم، وطيب النفس، والاستسلام. والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه وإرادته منها..

وقد بينا أن الرضى بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه، فإنه لم يرض به لكون الله قدره وقضاه وأمر به. وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه. فهو إنما رضي لنفسه وعن نفسه. لا بربه، لا عن ربه.

**الحادي والثلاثون**: إن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضى والطاعات كلها أصلها من الرضى. وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي.

**الثاني والثلاثون**: إن عدم الرضى يفتح باب البدعة، والرضى يغلق عنه ذلك الباب. ولو تأملت بدع الروافض، والنواصب، والخوارج، لرأيتها ناشئة عن عدم الرضى بالحكم الكوني، أو الديني، أو كليهما.

**الثالث والثلاثون**: إن الرضى معقد نظام الدين ظاهره وباطنه. فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع:

فتنقسم قسمين دينية، وكونية. وهي مأموريات ومنهيات، ومباحات، ونعم ملذة، وبلايا مؤلمة.

فإذا استعمل العبد الرضى في ذلك كله. فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام وفاز بالقدح المعلى.

**الرابع والثلاثون**: إن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

**الخامس والثلاثون**: إن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة الله، وحكمته،

وملكه، فهو موجب أسمائه وصفاته. فمن لم يرض بما رضي به ربه، لم يرض بأسمائه وصفاته، لم يرض به رباً.

**السادس والثلاثون:** إن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه. لا يخلو: إما أن يكون عقوبة على الذنب. فهو دواء لمرض. لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض إلى الهلاك. أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه. فالمكروه ينقطع ويتلاشى. وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع. فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضى عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره.

**السابع والثلاثون:** إن حكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاؤه عدل فيه. كما في الحديث «ماض في حكمك، عدل في قضائك» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور..

**الثامن والثلاثون:** إن عدم الرضى إما أن يكون لفوات ما أخطاه مما يحبه ويريده. وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه. فإذا تيقن إن ما أخطاه لم يكن ليصيبه. وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

**التاسع والثلاثون:** إن الرضى من أعمال القلوب. نظير الجهاد من أعمال الجوارح. فإن كل واحد منها ذروة سنام الإيمان. قال أبو الدرداء «ذروة سنام الإيمان: الصبر للحكم، والرضى بالقدر».

**الأربعون:** إن أول مصيبة عصى الله بها في العالم: إنما نشأت من عدم الرضى. فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً، من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني، ومن أمره بالسجود لآدم. وآدم لم يرض بما أتيح له من الجنة. حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى. ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضى.

**الحادي والأربعون:** إن الراضي واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوة معرفته بربه تعالى، ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسيفان الثوري، ويوسف بن أسباط. فقال

الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم وأما اليوم: فوددت أني ميت..

فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء.

فقال الثوري: ولم تكره الموت؟.

قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إلي أحبه إلى الله.

فقبل الثوري بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة.

.. فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت. وقف مع اختيار الله له منهما. وقد كان وهيب ـ رحمه الله ـ له المقام العالي من الرضى وغيره.

**الثاني والأربعون:** أن يعلم إن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاءه وابتلاءه إياه عافية. قال سفيان الثوري: منعه عطاء. وذلك: إنه لم يمنع عن بخل ولا عدم. وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختياراً وحسن نظر. وهذا كما قال. فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن من قضاء إلا كان خيراً له، ساءه ذلك القضاء أو سره. فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء. وإن كان في صورة المنع. ونعمة. وإن كانت في صورة محنة. وبلاؤه عافية. وإن كان في صورة بلية. ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل. وكان ملائماً لطبعه.

**الثالث والأربعون:** أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء والمظهر لكل شيء، والمالك لكل شيء. وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار. وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار. ولا يشرك في حكمه أحداً. والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً. فهو سبحانه الذي اختار وجوده. واختار أن يكون كما قدره له وقضاء: من عافية وبلاء، وغنى وفقر، وعز وذل، ونباهة وخمول. فكما تفرد سبحانه بالخلق، تفرد بالاختيار والتدبير ـ وليس للعبد شيء من ذلك ـ فإن الأمر كله لله. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾

[سورة آل عمران، الآية: ١٢٨] فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير. لم يكن له معول ـ بعد ذلك ـ غير الرضى بمواقع الإقدار. وما يجري به من ربه الاختيار.

**الرابع والأربعون:** إن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه. قال الله تعالى: ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥] بعد قوله: ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم**﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٢]. . . وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال.

**الخامس والأربعون:** إن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل. وأغناه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يعطي أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألوه. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى، بل أصحابه ملحون في سؤاله ذلك.

**السادس والأربعون:** إن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات. فإن عجز العبد عنه: حطه إلى المقام الوسط، كما قال «**أعبد الله كأنك تراه**» فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ثم قال: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» فحطه عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني، وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء. وكذا الحديث الآخر «**إن استطعت أن تعمل لله بالرضى مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**» فرفعه إلى أعلى المقامات. ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى. فالأول مقام الإحسان. والذي حطه إليه: مقام الإيمان. وليس دون ذلك إلا مقام الخسران.

**السابع والأربعون**: إنه ﷺ أثنى على الراضين بمر القضاء بالحكم والعلم والفقه والقرب من درجة النبوة. كما في حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ. فقال «ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال: حكماء علماء. وكادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء.

**الثامن والأربعون**: إن الرضى آخذ بزمام مقامات الدين كلها. وهو روحها وحياتها فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحة المحب، ودليل صدق المحبة، وروح الشكر ودليله.

قال الربيع بن أنس: علامة حب الله كثرة ذكره. فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره. وعلامة الدين: الإخلاص لله في السر والعلانية. وعلامة الشكر، الرضى بقدر الله والتسليم لقضائه.

وقال أحمد بن أبي الحواري: ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون» فقال: ويحك، ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصى عليك.. إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين. إنما الحمد: أن تحمده وقلبك مسلم راض.

فصار الرضى كالروح لهذه المقامات، والأساس الذي تبنى عليه ولا يصح شيء منها بدونه البتة، والله أعلم.

**التاسع والأربعون**: إن الرضى يقوم مقام كثير من التعبدات التي تشق على البدن، فيكون رضاه أسهل عليه، وألذ له، وأرفع في درجته. روى ابن مسعود رضي الله عنه «من رضي بما أنزل من السماء إلى الأرض غفر له». وفي أثر مرفوع «من خير ما أعطى العبد: الرضى بما قسم الله له».

وفي أثر آخر «إذا أحب الله عبداً ابتلاه. فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه».

وفي أثر: أن بني إسرائيل «سألوا موسى أن يسأل ربه أمراً إذا هم فعلوه رضي

عنهم. فقال موسى: رب، إنك تسمع ما يقولون. فقال: قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم».

وفي أثر آخر عن النبي ﷺ «من أحب أن يعلم ماله عند الله. فلينظر إلى ما لله عنده. فإن الله ينزل العبد منه حيث ينزله العبد من نفسه».

وفي أثر آخر «من رضي من الله بالقليل من الرزق، رضي الله عنه بالقليل من العمل».

وقال بعض العارفين: أعرف في الموتى عالماً ينظرون إلى منازلهم في الجنان في قبورهم، يغدى عليهم ويراح بزرقهم من الجنة بكرة وعشياً. وهم في غموم وكروب في البرزخ. لو قسمت على أهل بلد لماتوا أجمعين..

قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين مؤمنين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضى نصيب.

وفي وصية لقمان لابنه «أوصيك بخصال تقربك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً. وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت».

وقال بعض العارفين: من يتوكل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تصلح للعبد أمره.

**الخمسون**: إن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فإن حسن الخلق من الرضى، وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

**الحادي والخمسون**: إن الرضى يثمر سرور القلب بالمقدور وفي جميع الأمور وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، ويرد القناعة، واغتباط العبد بقسمة من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوى ربه

إلى غيره وتبرمه بأقضيته. ولهذا سمي بعض العارفين الرضى: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه. فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر؟ ولا يقول هذا يوم شديد الحر، أو شديد البرد. ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال هم وغم، ولا يسمى شيئاً قضاه الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى. فإن هذا كله ينافي رضاه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه «الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر. وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

وقال ابن أبي الحواري - أو قيل له - إن فلاناً قال: وددت أن الليل أطول مما هو. فقال: قد أحسن. وقد أساء، أحسن حيث تمنى طوله للعبادة والمناجاة. وأساء حيث تمنى ما لم يرده الله، وأحب ما لم يحبه الله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت: من شدة أو رخاء».

وقال يوماً لامرأته عاتكة، أخت سعيد بن زيد - وقد غضب عليها - «والله لأسوأنك، فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام، بعد إذ هداني الله له؟ قال: لا. فقالت: فأي شيء سوءني به إذاً»؟.

تريد أنها راضية بمواقع القدر. لا يسوءها منه شيء إلا صرفها عن الإسلام ولا سبيل له إليه.

وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارض عنا. فقالت: أما تستحي أن تسأله الرضى عنك، وأنت غير راض عنه؟ فقال: استغفر الله، ثم قال لها جعفر بن سليمان: متى يكون العبد راضياً عن الله؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

وفي أثر إلهي «ما لأوليائي والهم بالدنيا؟ إن الهم بـالدنيـا يذهب حـلاوة مناجاتي من قلوبهم».

فالإيمان بالقدر، والرضى به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن.

وذكر عن رابعة: ولي لله قوته من المزابل. فقال رجل عندها: ما ضر هذا أن يسأل الله أن يجعل رزقه في غير هذا؟ فقالت: اسكت بإبطال، أما علمت أو أولياء الله هم أرضى عنه من أن يسألوه أن ينقلهم إلى معيشة حتى يكون هو الذي يختار لهم؟.

وفي أثر إسرائيلي «إن موسى ﷺ: سأل ربه عما فيه رضاه؟ فأوحى الله إليه: إن رضاه في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، فقال: يا رب، دلني عليه. فقال: إن رضاه في رضاك بقضائي».

وفي أثر آخر: إن موسى عليه السلام قال «يا رب، أي خلقك أحب إليك؟ فقال: من إذا أخذت منه محبوبه سالمني. قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من استخارني في أمر فإذا قضيته له سخط قضائي.

**الثاني والخمسون:** إن أفضل الأحوال: الرغبة في الله ولوازمها. وذلك لا يتم إلا باليقين، والرضى عن الله. ولهذا قال سهل: حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضى. وحظهم من الرضى على قدر رغبتهم في الله.

**الثالث والخمسون:** إن الرضى يخلصه من عيب ما لم يعبه الله. ومن ذم ما لم يذمه الله. فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب. وذمه بأنواع المذام. وذلك منه قلة حياء من الله. وذم لما ليس له ذنب، وعيب لخلقه. وذلك يسقط العبد من عين ربه. ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعبته وذممته، لكنت متعرضاً لمقته وإهانته، ومستدعياً منه: أن يقطع ذلك عنك. وقد قال بعض العارفين: إن ذم المصنوع وعيبه ـ إذا لم يذمه صانعه ـ غيبة له وقدح فيه.

**الرابع والخمسون:** إن النبي ﷺ سأل الله الرضى بالقضاء، كما في المسند والسنن «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي. وتوفني رذاً كانت الوفاة خيراً لي. وأسألـك خشيتك في الغيب والشهـادة.

وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيماً لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضى بعد القضاء. . وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين».

**الخامس والخمسون**: إن الرضى بالقدر يخلص العبد من أن يرضى الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالماً لهم في الأول ـ وهو رضاهم وذمهم ـ مشركاً في الثاني ـ وهو حمدهم ـ فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم. فخلصه الرضى من ذلك كله.

وقد روي عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن من ضعف اليقين: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن يحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كره كاره. وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين. وجعل اللهم والحزن في الشك والسخط».

**السادس والخمسون**: إن الرضى يفزع قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي ـ وكان من العلماء ـ قال: قلت لعابد: أوصني. قال: إلق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أحرى أن يفزع قلبك. ويقلل همك وإياك أن تسخط ذلك، فيحل بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به. فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال بعض السلف: ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش. فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم.

وقال أبو العباس بن عطاء: الفرح في تدبير الله لنا. والشقاء كله في تدبيرها.

وقال سفيان بن عيينة: من لم يصلح على تقدير الله لم يصلح على تقدير نفسه.

وقال أبو العباس الطوسي: من ترك التدبير عاش في راحة.

وقال بعضهم: «لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور».

وقال: الرضا ترك الخلاف على الرب فيما يجريه على العبد.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله «لقد تركتني هؤلاء الدعوات، وما لي في شيء من الأمور كلها إرب، إلا في مواقع قدر الله. وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته. ولا أحب تأخير شيء عجلته».

وقال: ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل.

وقال شعبة: قال يونس بن عبيد: ما تمنيت شيئاً قط.

وقال الفضيل بن عياش: الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضى، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، وثلاثة من أعلام التفويض: تعطيل إرادتك لمراده، والنظر إلى ما يقع من تدبيره لك، وترك الاعتراض على الحكم. وثلاثة من أعلام التوحيد: رؤية كل شيء من الله، وقبول كل شيء عنه، وإضافة كل شيء إليه.

وقال بعض العارفين: أصل العبادة ثلاثة: لا ترد من أحكامه شيئاً، ولا تسأل غيره حاجة. ولا تدخر عنه شيئاً.

وسئل ابن شمعون عن الرضى؟ فقال: أن ترضى به مدبراً ومختاراً وترضى عنه قاسماً ومعطياً ومانعاً. وترضاه إلهاً ومعبوداً ورباً.

وقال بعض العارفين: الرضى ترك الاختيار، وسرور القلب بمر القضاء، وإسقاط التدبير من النفس، حتى يحكم الله لها أو عليها.

وقيل: الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يأسف عليها.

ولله در القائل:

العبـد ذو ضجـر، والـرب ذو قـدر والـدهـر ذو دول. والـرزق مقسـوم
والخيـر أجمـع فيمـا اختـار خـالقنـا وفـي اختيـار سـواه اللوم والـشـوم

السابع والخمسون: «إنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لـوم المقاديـر. إما بقالبه، وإما بقلبه وحاله. ولوم المقادير لوم لمقدِّرها. وكذلك يقع في لوم الخالق. والله والناس يلومونه، فلا يزال لائماً ملوماً. وهذا مناف للعبودية.

قال أنس رضي الله عنه «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين. فما قـال لي لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: الا فعلته؟ ولا قال لي لشيء كان: ليته لم يكن. ولا لشيء لم يكن: ليته كان. وكان بعض أهله إذا لامني يقول: دعوه. فلو قضى شيء لكان».

وقوله «لو قضى شيء لكان» يتناول أمرين:

أحدهما: ما لم يوجد من مراد العبد.

والثاني: ما وجـد مما يكـرهه. وهـو يتناول فـوات المحبوب، وحصـول المكروه. فلو قضى الأول لكان. ولـو قضى خلاف الآخـر لكان. فـإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء، فعبودية العبد: أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه. وهذا موجب العبودية ومقتضاها... يوضحه:

الثامن والخمسون: إنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضى الرب تعالى. فهذا رضيه لعبده فقدَّره. وهذا لم يرضه له فلم يقدِّره. فكمال الموافقة أن يستويا بالنسبة إلى العبد. فيرضى ما رضيه له ربه في الحالين.

التاسع والخمسون: إن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه ويدي رسوله في حكمه الديني الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكوني القدري: أن لا يتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك. فيكون التقدم أيضاً بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضه الصبر أو ندبه، أو فرضه الرضى حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

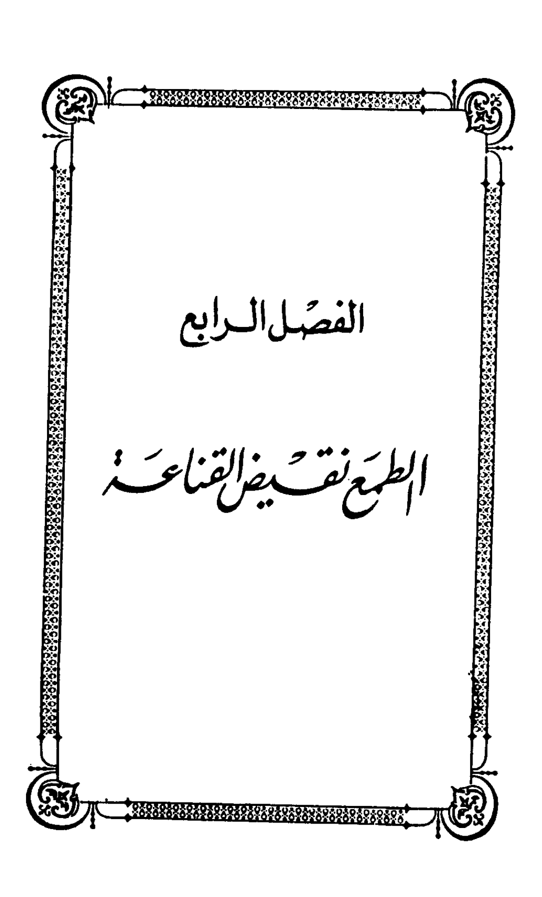
الستون: إن المحبة والإخلاص والإنابة: لا تقوم إلا على ساق الرضى. فالمحب راض عن حبيبه في كل حالة. وقد كان عمران بن حصين رضي الله عنه

استُسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره مدة طويلة، لا يقوم ولا يقعد، وقد نُقب له في سريره موضع لحاجته. فدخل عليه مطرف بن عبد الله الشخير. فجعل يبكي لما رأى من حاله. فقال له عمران: لم تبك؟ فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة. فقال: لا تبك. فإن أحبه إليَّ أحبه إليه. وقال: أخبرك بشيء، لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليّ حتى أموت. إن الملائكة تزورني فآنس بها. وتسلِّم علي فأسمع تسليمها.

وقال بعض السلف: لو قرض لحمي بالمقاريض كان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله؛ ليته لم يقضه.

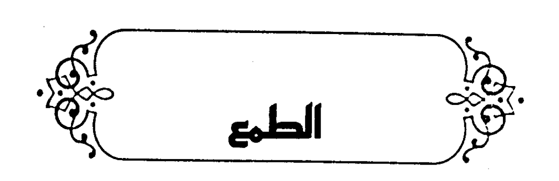
**الحادي والستون**: إن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حد تنتهي إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهي دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها: مثاله: إن المحبة والرضى حال المحب الراضي، لا تفارقه أصلاً، وأن توارى حكمها. فصاحبها في زيد متصل. فمزيد المحب الراضي: متصل بدوام هذه الحال له. فهو في مزيد، ولو فترت جوارحه. بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما. ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام. وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله، وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم. لا إلى صور الأعمال وقيمة العبد: همته وإرادته. فمن لا يرضيه غير الله - ولو أعطى الدنيا بحذافيرها - له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة. وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء الله ذو الفضل العظيم.



# الفصل الرابع

## الطمع نقيض القناعة



# الطمع

وضد القناعة عدم الرضا بالقسم وكثرة التمني واشتهاء ما في أيدي الناس... وهو الطمع...

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إن الطمع فقر وإن اليأس غنى، وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم».

وقال بعض الحكماء:

وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرّط» وانظر ماذا يفعل الطمع بالناس:

قال عبد الله بن سلام لكعب: ما يُذْهِب العلومَ من قلوب العلماء إذا وعوها وعقلوها؟... قال: الطمع وشره النفس وطلب الحوائج.

وقال رجل للفضيل: فسرٍّ لي قول كعب... قال:

«يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هـذا حاجة، فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له، فمن حبك للدنيا سلّمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض، لم تسلّم عليه لله عز وجل ولم تعده لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك»...

ولنتذكر هنا بيت شعر مر بنا:

وقـالـوا قـد زهيت فقلت كـلا ولـكـنـي أعـزنـي الـقـنـوع

سبحان الله. . . فما أبعد مسافات الاختلاف بين المعنى في بيت الشعر هذا وبين الحال في تفسير الفضيل لقول كعب!.

أنهما الضدان وقد سرى مفعول كل منهما في صاحبه فوضعه في الحال والمكانة التي رأينا. . . فهذا قانع يرد الحُسن في منظره وحاله إلى تلك العزة المتولدة من القنوع. . . وذاك الرجل الذي في تفسير الفضيل لقول كعب، رجل طامع شره أذلته حاجته للآخرين فأسلم قيادة لهم، فاستمكنوا منه وخضع لهم. . .

إن الغنى غني النفس. . . وغنى النفس قناعة. . . وأكثر السعادة والراحة في القناعة. . . والشقاء في كثرة الطلب. . . وكثرة الطلب طمْع. . . والذل والهوان في الطمع. . .

عن النبي ﷺ أنه قال:

«ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس».

وعنه ﷺ أنه قال:

«طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به».

وعن الحسن عن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ قال:

«قال الله تعالى: عبدي أدِّ ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس، وانته عما نهيتك عنه تكن من أورع الناس، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس».

قال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له، ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟، قال الحرمان.

وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

ويعني باليأس، يأس الناس مما في أيدي الناس وعدم التطلع إليه. . .

ولما كان الطمع هو ضد القناعة. . . هو عدم الرضا وكثرة التمني واشتهاء ما في أيدي الناس. . . هو الذل والهوان. . . هو علة غير القنوع. . . فأي الخصال

الرديئة توطن هذه العلة في النفس الإنسانية؟...

إن ابن آدم يعلم ما فيه الكفاية عن حقيقة الموت، والبعث، والحساب والجنة، والنار... ولكن أحداً لا يدري في أي وقت يموت، من هنا يتولد طول الأمل... توسّم تأخّر الأجل... مساحة من العمر أبعد يلزمها التحسب لغدرات الدنيا والتحصن ضد الفقر والجوع والعوز... وفي خضم التحسب والتحصن هذين ينسى الإنسان الآخرة وينكب على الدنيا ويبات حريصاً عليها.

قال أحد الفقهاء:

«من قصر أمله أكرمه الله تعالى بأربع كرامات. إحداهم: أن يقويه على طاعته لأن العبد إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه، ويجتهد في الطاعات فيكثر عمله، والثاني: يقل همومه لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه، والثالث: يجعله راضياً بالقليل، لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب فإنه لا يطلب الكثرة وإنما يكون همه هم آخرته، والرابع: أن ينوِّر قلبه لأنه يقال نور القلب من أربعة أشياء: أولها بطن جائع، والثاني صاحب صالح، والثالث حفظ الذنب القديم، والرابع قصر الأمل... فإن من طال أمله عاقبه الله تعالى بأربعة أشياء «أولها أن يتكاسل عن الطاعات، والثاني أن تكثر همومه في الدنيا، والثالث أن يصير حريصاً على جمع المال، والرابع أن يقسو قلبه، لأنه يقال قسوة القلب من أربعة أشياء» أولها بطن ممتلىء، والثاني صحبة السوء، والثالث نسيان الذنوب الماضية، والرابع طول الأمل... فينبغي للمسلم أن يقصر أمله، فإنه لا يدري في أي نفس يموت، وفي أي قدم يموت؟.. قال الله تعالى: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ [سورة لقمان، الآية: ٣٤].

يا لها من ركيزة: «إذا علم العبد أنه يموت عن قريب»... بعد يوم... أو بعد ساعة... أو هي طرفة عين ينتهي بعدها الأجل... من يدري؟!... فأي هم لابن آدم إن اعتبر بالموت غير هم آخرته... أيهتم بمكروه والموت محدق به... أيطلب كثرة في المال أو عزة في الدنيا... أم أنه عامل للآخرة المرتحل إليها بعد حين قد يبلغ من الضآلة زمن طرفة عين... فأي غاية في الدنيا يرجوها وقد قصر أمله فيها؟!...

فقصر الأمل إذا يعود على الإنسان بالكرامات:

- يقويه على طاعة الله عز وجل.
- يقل همومه، فالموت المحدق يكفي عن التفكر في مكروه الدنيا.
- يجعله راضياً بالقليل... فما قيمة الكثرة وهو تاركها لا محال.
- ينور قلبه.

أما طول الأمل فله عواقبه الوخيمة على الإنسان:

- يجعله يتكاسل عن الطاعات... فما دام يقينه أن في العمر بقية سوَّفه إبليس وثبطه عن العبادات والمطاعات حتى يموت دونها... فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير، إلا أنه يَعِد نفسه بذلك، فما من شك أنه من أمل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً... وقد قال بعض السلف في ذلك: انذركم «سوف» فإنها أكبر جنود إبليس: ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل... وقال المفرِّط سأتأهب فربما أقمنا شهراً، فضرب بوق الرحيل في الحال فاغتبط المحترز واغتم الآسف المفرط.

- يكثر همومه في الدنيا... فهو محتسب لحاجته غداً وبعد غد على قدر ما يطول أمله في الدنيا... فما دام الاعتبار غائباً عنه ذهب منه أبلغ الاهتمام وهو الاهتمام بآخرته، فصار يحسب كل نقص في شيء من دنياه هو أبلغ الهم ومبعث الحزن حتى تفتحت عليه أبواب النواقص - وهو عهدنا بالدنيا - فكلما أوصد منها باباً فتحت عليه أبواباً وصار ذلك هو شغله الشاغل.

- يجعله حريصاً على جمع المال.
- يمد قلبه بالقسوة.

ولننظر فيما قاله بعض الحكماء عن مداخل الشيطان للإنسان، يتقدمها الحرص وطول الأمل:

«نظرت وتفكرت من أي باب يأتي الشيطان إلى الإنسان، فإذا هو يأتي من

عشرة أبواب، أولها: يأتي من قبل الحرص وسوء الظن، فقابلته بالثقة والقناعة، فقلت بأي آية أتقوى عليه من كتاب الله تعالى: فوجدت قول الله عز وجل: **﴿وما من دابة في الأرض إلا وعلى الله رزقها﴾** [سورة هود، الآية: ٦].

فكسرته بذلك... والثاني: نظرت فإذا هو يأتي من قبل الحياة وطول الأمل فقابلته بخوف مفاجأة الموت، فقلت: بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى: **﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾** [سورة لقمان، الآية: ٣٤].

فكسرته بذلك... والثالث: نظرت فإذا هو يأتي من قبل الراحة، وطلب النعمة، فقابلته بزوال النعمة وسوء الحساب، فقلت بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قوله تعالى: **﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾** [سورة الحجر، الآية: ٣].

ويقول: **﴿أفرأت إن متعناهم سنين﴾** [سورة الشعراء، الآية: ٢٠٥].

فكسرته بذلك... والرابع: نظرت فإذا هو يأتي من باب العجب فقابلته بالمنة وخوف العاقبة، فقلت بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى: **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾** [سورة هود، الآية: ١٠٥].

فلا أدري من أي الفريقين أكون، فكسرته بها... والخامس: رأيته يأتي من باب الاستخفاف بالإخوان، وقلة حرمتهم، فقابلته بمعرفة حقهم وحرمتهم، فقلت بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى في كتابه: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾** [سورة المنافقون، الآية: ٨].

فكسرته بها... والسادس: نظرت فإذا هو يأتي من باب الحسد، فقابلته بالعدل وقسمة الله تعالى في خلقه، فقلت: بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى: **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾** [سورة الزخرف، الآية: ٣٢].

فكسرته بها... والسابع: نظرت، فإذا هو يأتي من قبل الرياء ومدح الناس، فقابلته بالإخلاص، فقلت بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه، فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾** [سورة الكهف، الآية: ١١٠].

يعني مخلصاً، فكسرته بها... والثامن: نظرت فإذا هو يأتي من باب

البخل، فقابلته بفناء ما في أيدي الخلق، وبقاء ما عند الله تعالى، فقلت بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى: **﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾** [سورة النحل، الآية: ٩٦].

فكسرته بها... والتاسع: نظرت فإذا هو يأتي من باب الكبر، فقابلته بالتواضع، فقلت: بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله عز وجل: **﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [سورة الحجرات، الآية: ١٣].

فكسرته بها... والعاشر: نظرت فإذا هو يأتي من باب الطمع، فقابلته بالإياس من الناس، والثقة بما عند الله، فقلت: بأي آية أتقوى عليه، فوجدت قول الله تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** [سورة الطلاق، الآية: ٢].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنازعتم لثلاثة بثلاثة: للمكب على الدنيا، والحريص عليها، والشحيح بها، بفقر لا غنى بعده، وشغل لا فراغ منه، وهم لا فرح معه».

وعنه ﷺ أنه قال: «يهرم من ابن آدم كل شيء إلا إثنتان: الحرص والأمل».

وروي عن ابن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه أشرف على أهل حمص فقال: ألا تستحيون؟ تبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون... إن الذين كانوا قبلكم بنوا شيداً، وجمعوا كثيراً، وأملوا بعيداً، فأصبحت مساكنهم قبوراً، وآمالهم عنه غروراً وجمعهم بوراً»...

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، أنه قال: أخوف ما أخاف عليكم إثنتان: طول الأمل، وإتباع الهوى، وإن طول الأمل ينسي الآخرة، وإتباع الهوى يصد عن الحق.

وما زلنا نستعرض بعضاً من كثير ورد عن رسول الله ﷺ، وصحابته، والسلف الصالح، والحكماء، في آفتي الحرص وطول الأمل... استدللنا على كرامات قصر الأمل وعواقب طول الأمل... ووجدنا في قول بعض الحكماء،

الحرص وطول الأمل يتقدمان مداخل الشيطان للإنسان. . . وها هو قـول بعض الحكماء يضع الحرص في أمهات الخطايا. . . إذ تضمن: أمهات الخطايا ثلاثة أشياء: الحسد والحرص والكبر، فأما الكبر فكان أصله من إبليس حين تكبر وأبى أن يسجد، فَلُعن. وأما الحرص فكان أصله من آدم عليه السلام حيث قيل له الجنة كلها مباح لك إلا هذه الشجـرة، فحمله الحرص على أكلهـا حتى سقط منها، والحسد أصله من قابيل ابن آدم حين قتل آخاه هابيل، فصار كافراً ومأواه النار أبداً. . .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل».

وعنه ﷺ أنه قال: «الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن، والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وما الفقر أخاف عليكم، ولكنني أخاف عليكم الغنى، أن تبسط لكم الدنيا كما بسطت لمن قبلكم فتنافسوهـا كما تنـافسوا فيهلككم كمـا أهلكهم».

## حكاية

روي عن جرير عن ليث أنه قال:

«صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال: أكون معك وأصاحبك، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغذيان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها. قال: فدعا أحدهما فأتاه، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف: قم بإذن الله، فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري. . . ثم انتهيا إلى وادي ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء، فلما جاوزا قال له: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، فانتهيا إلى مغازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال كن ذهباً بإذن الله تعالى، فصار ذهباً

فقسم ثلاثة أثلاث، ثم قال: ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف، فقال: أنا الذي أخذت الرغيف، فقال كله لك، وفارقه عيسى عليه السلام فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال هو بيننا أثلاثاً فابعثوا أحدكما إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله، قال: فبعثوا أحدهم، فقال الذي بُعث «لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال؟ لكني أضع في هذا الطعام سماً فأقتلهما وآخذ المال وحدي»... قال ففعل... وقال ذاتك الرجلان» لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا»... قال: فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا... فبقي ذلك المال في المفازة، وأولئك الثلاثة عنده قتلى...

فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها».

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته في الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له».

وروي عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قدم عليه من أرض الشام فسأله عن أرضهم: فأخبره عن سعة أرضهم، وكثرة النعيم فيها، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تفعلون؟» قال: إنّا نتخذ ألواناً من الطعام ونأكلها. قال: «ثم تصير إلى ماذا؟»، قال إلى ما تعلم يا رسول الله - يعني تصير بولاً وغائطاً - فقال النبي ﷺ: «فكذلك مثل الدنيا».

وروي عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أنه قال: عجباً لكم، تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها بغير عمل.

وروى أبو عبيدة الأسدي عن رسول الله ﷺ أنه قال: من أشرب قلبه حب الدنيا إلتاط قلبه منها ثلاث: شغل لا ينفك عناؤه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا

يُدرك عناه. والدنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأتيه الموت فيأخذه بغتة».

وروى إبراهيم بن يوسف عن كنانة قال: بلغني عن أبي حازم أنه قال: «أوجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لي لا يفوتني، وشيئاً منها لغيري فلا أدركه، منع الذي لي عن غيري، كما منع الذي لغيري مني، ففي أي هذين أفني عمري؟... ووجدت ما أعطيت من الدنيا شيئين: شيئاً منهما يأتي أجله قبل أجلي فأغلب عليه وشيئاً منها يأتي أجلي قبل أجله فأموت وأتركه لغيري، ففي أي هذين أعصي»؟.

## علاج الحرص والطمع

روي عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال: «لا تخبئوا طعاماً لغد، فإن غداً يأتي ومعه رزقه، وانظروا إلى الذرّ ومن يرزقه، فإن قلتم: بطون الذرّ صغار فانظروا إلى الطائر، فإن قلتم: للطائر أجنحة، فانظروا إلى الوحوش ما أبدنها وأسمنها.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده».

وذُكر عن داود عليه الصلاة والسلام، أنه قال لابنه سليمان عليه السلام: «يا بني إنما يستدل على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات».

وذكر عن أبي مطيع البلخي أنه قال لحاتم الأصم، رحمهما الله تعالى: بلغني أنك تجاوز المفاوز بالتوكل بغير زاد... قال: بل أجاوزها بالزاد. قال: وما زادك؟ قال: زادي فيها أربعة أشياء. قال وما هي؟ قال: «أرى الدنيا بحذافيرها مملكة لله، وأرى الخلق كلهم عيال الله، وأرى الأسباب والأرزاق كلها بيد الله، وأرى قضاء الله نافذاً في جميع خلقه... قال أبو مطيع: نعم الزاد زادك يا حاتم،

وإنك لتجاوز بها مفاوز الآخرة، فكيف مفاوز الدنيا؟.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: «قوام الإسلام بأربعة أركان: اليقين، والعدل، والصبر، والجهاد»... والعلماء فسروا هذه الأربعة أشياء فقالوا: أما اليقين فهو على وجهين: أحدهما أن يعمل لله خالصاً، ولا يطلب به عرض الدنيا ولا رضا المخلوقين... والثاني: أن يكون آمناً بوعد الله وهو الرزاق.

وأما العدل فهو على وجهين: أحدهما: أنه لو كان عليه حق يؤديه قبل الطلب، والثاني: إذا كان له على غيره حق يرفق بطلبه...

وأما الصبر فهو على وجهين: أحدهما: أن يصبر على أداء فرائض الله تعالى... والثاني، أن يصبر عما نهاه الله تعالى عنه.

وأما الجهاد فهو على وجهين: أحدهما: أن لا تغفل عن عدوك، وهو الشيطان، فإنك إن غفلت عنه، فإنه لم يغفل عنك، فهو كالذئب إذا وقع في الغنم فكل شاة غفلت عنها أخذها... والثاني: إن أكثر فتنة بني آدم لأجل المال فارض باليسير من المال لكيلا يغرك».

وروي عن شقيق الزاهد رحمه الله تعالى أنه قال لحاتم الأصم رحمه الله تعالى:

- منذ كم تختلف إليَّ؟

قال: منذ ثلاثين سنة.

فقال له شقيق: أي شيء تعلمت في هذه الثلاثين سنة؟

قال: تعلمت ست كلمات، فلو علمت بها لرجوت أن تنجيني من فتنة الدنيا.

فقال له شقيق: أخبرني عن ذلك، فعلّي أعمل بهن فأنجو بذلك.

فقال: أما الأولى: نظرت في قول الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [سورة هود، الآية: ٦].

فرأيت نفسي من تلك الدواب التي رزقها الله تعالى، وعلمت أن ما هو لي

فإنه يصل إليَّ، فإن الله يرزق الفيل مع عظمه، ولا ينسى البعوضة لصغرها، ففوضت أمري إلى الله، فاشتغلت بالعبادة، ولا أهتم بغيرها.

فقال له شقيق: نِعْمَ ما فهمت، فما الثانية؟

قال: قال: نظرت في قول الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

فرأيت المؤمنين كلهم أخوة لي، والأخ ينبغي أن يكون مشفقاً على أخيه، ورأيت العداوة التي تقع بين الناس أصلها من الحسد، فاجتهدت حتى أخرجت الحسد من قلبي، حتى صار قلبي بحال لو أصاب مسلماً خير في المغرب أسر به حتى كأنه أصابني.

فقال له شقيق: نِعْمَ ما فهمت، فما الثالثة؟

قال: نظرت فوجدت لكل إنسان حبيب، ولا بد للحبيب أن يظهر للحبيب محبته، فوجدت حبيبي طاعة الله تعالى، وما سوى ذلك من الأحباء ينقطعون عني إلا طاعة الله، فإنها معي في القبر، وفي المحشر، وعلى الصراط، فانقطعت عن جميع الأحبة، واتخذت طاعة الله حبيباً.

فقال له شقيق: نِعْمَ ما فهمت، فما الرابعة؟

قال: نظرت، فوجدت لكل إنسان عدواً، ولا بد للعدو من عدوانه، والحذر عنه، فرأيت عدوي الكافر والشيطان، فرأيت عداوة الكافر أيسر لأنه إن قاتلني فقتلني كنت شهيداً، وإن قتلته كنت مأجوراً، فرأيت عداوة الشيطان أشد، لأنه يراني من حيث لا أراه، فيريد أن يجعلني مع نفسه في النار، فاشتغلت بعداوته ما عشت وتركت عداوة غيره.

فقال له شقيق: نِعْمَ ما فهمت، فما الخامسة؟

قال: نظرت فوجدت لكل إنسان بيتاً، ولا بد للبيت من العمارة فرأيت منزلي القبر فاشتغلت بعمارته.

فقال له شقيق: نِعْمَ ما فهمت، فما السادسة؟

قال: نظرت فوجدت لكل شيء طالباً، فرأيت طالبي ملك الموت ولا أدري متى يأتيني، فاستعددت له كالعروس تزف إلى منزل زوجها، فمتى جاءني لا أطلب منه التأخير.

فقال له شقيق: نِعْمَ ما فهمت، إن عملت بها نجوت أنا وأنت.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة.

«أعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: «الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور».

**الأول:** وهو العمل، الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلا ما لا بد له منه، فمن أكثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة.

فالإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة، ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه، قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب الرفق الأمر كله»... وقال ﷺ «ما عال من اقتصد»... وقال ﷺ «ثلاث منجيات، خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب»...

وروي أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حباً من الأرض وهو يقول: إن من فقهك رفقك في معيشتك... وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ «الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من عشرين جزءاً من النبوة»... وفي الخبر «التدبير نصف المعيشة»... وقال ﷺ «من اقتصد أغناه الله ومن بذّر أفقره الله، ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله»... وقال ﷺ «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً»... والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

**الثاني:** إنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي

قدر له لابد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه. . . فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى إذ قال عز وجل: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [سورة هود، الآية: ٦].

وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والإدخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤل، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضحك عليه في احتمال التعب نقداً مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون. . . وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة الفقر، فالذي فعل: الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشور، ثم يرزقه الله تعالى». . . ومر رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له «لا تكثر همك ما قُدِّر يكن وما تُرزق يأتك». . . وقال ﷺ: «ألا أيها الناس اجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كُتِبَ له في الدنيا وهي راغمة، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله لعبد من حيث لا يحتسب أكثر. . . قال الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٣].

فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضْطرب قلبه لأجله، وقال ﷺ «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب». وقال سفيان: «اتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً» أي لا يُترك التقي فاقداً لضرورته، بل يلقي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. . . وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال: الحاج، قلت: فإذا صدروا. . . فبكى وقال: لو لم نعش إلا من حيث ندري لم نعش. . . وقال أبو حازم رضي الله عنه: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لي، فلن أعجله قبل وقته لو طلبته بقوة السماوات والأرض، وشيئاً

منهما هو لغيري فلذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي، يُمنع الذي لغيري مني كما يُمنع الذي لي من غيري، ففي أي هذين أفني عمري؟ . . . فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر.

**الثالث:** أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل. . . فإذا انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذلك، وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول. وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة. وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم. ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق، فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداهنة، وذلك يهلك دينه، ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان. . . قال ﷺ «عز المؤمن استغناؤه عن الناس»، ففي القناعة الحرية والعز، ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى ما شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

**الرابع:** أن يكثر تأمله في تنعم اليهودي والنصارى وأرذال الناس والحمقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين أن يكون على شابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه، وإن تزين في الملبس والحلى ففي اليهود من هو أعلى زينة منه، وإن قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

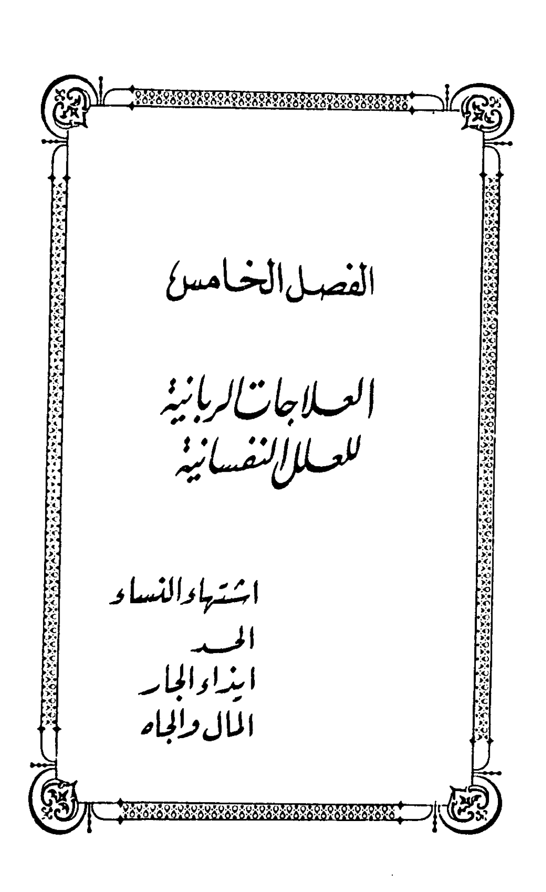
**الخامس:** أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع، وما في خلو اليد من الأمن والفراغ. . . وينظر أبداً إلى مَن دونه في الدنيا لا إلى مَن فوقه، فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا

إلى مَن فوقه فيقول: لِمَ تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس؟، نظره في الدين إلى من دونه فيقول: ولِمَ تضيّق على نفسك وتخاف الله، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم؟...

قال أبو ذر: أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى مَن هو دوني لا إلى من هو فوقي «أي في الدنيا».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله «إذا نظر أحدكم إلى من فَضَّله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه».

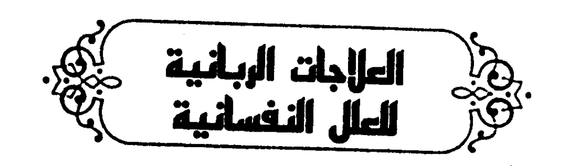
... فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة، وعماد الأمر «الصبر» وقصر الأمل وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلاً، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء».



## الفصل الخامس

# العلاجات الربانية للعلل النفسانية

اشتهاء النساء
الحسد
ايذاء الجار
المال والجاه




## اشتهاء نساء الغير

لا يقتصر غياب القناعة على النهم إلى المال والجاه والتميز، فشهوات النفس كثيرة، وغير القانع منساق لهوى نفسه الذي يغلب عليه الميل إلى الباطل وما ليس بحق فيسوقه إلى الهلاك....

قال تعالى: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٣٥].

... أي أن اتباعكم لإهوائكم فيه عصيان لربكم وإهلاكاً لكم.

وقال تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ [سورة ص، الآية: ٢٦].

... أي أنك إذا خالفت شرع الله، واتبعت هوى النفس، أي ما تحبه وترغبه شهوات النفس، ففي ذلك هلاك ودمار لك.

وقال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات، الآية: ٤١].

... أي وأما من خاف عظمة ربه وجلاله وجماله وكماله وعزته وجبروته وقوة سلطانه، وخاف وقوفه بين يدي ربه يوم الحساب، لعلمه ويقينه بالمبدأ والميعاد، ونهى النفس أي زجر نفسه عن المعاصي والمحارم وكفها عن الشهوات التي تهلكها وقال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه

عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٨].

واتبع هواه: أي عبد شهوات بدنه، فلا هم ولا شغل له إلا إشباع شهوات بدنه في الحلال والحرام، في الخير والشر، في الرذيلة أو الفضيلة، كل همه إشباع شهواته.

وقال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [سورة الفرقان، الآيات: ٤٣، ٤٤].

أي أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أي كفر بمولاه وعبد هواه وشهواته ولذاته بلا حدود ولا ضوابط ولا قيود، فهو يشبع شهواته ولو كان في ذلك عصياناً لله تعالى.

وأعظم الشهوات شهوة النساء... قال سعيد بن المسيب: ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء... وقال سعيد أيضاً - وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى - ما شيء أخوف عندي من النساء.

وروي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسى، فقال له موسى من أنت؟ فقال: أنا إبليس، فقال: لا حياك الله ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه، قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: برنس اختطف به قلوب بني آدم، قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً: لا تخل بامرأة لا تحل لك فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها، فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها، ثم ولى وهو يقول: علم موسى ما يحذر به بني آدم.

وعن سعيد بن المسيب قال: ما بعث الله نبياً خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي وبيت ابنتي أغسل فيه يوم الجمعة ثم أروح.

وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء، وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي. فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب.

فإذا كان هذا شأن المرأة، نصف جند إبليس وسهمه وموضع سره ورسول حاجته التي هي إضلال بني آدم وزحزحتهم عن الطريق المستقيم، لا شيء أخوف منها عند الأنبياء والصالحين؟!... فما بالنا بإنسان غير راض بقسمة الله في الأصل؟ منساق لهوى نفسه من طبيعته؟... فأي باع يكون له في مجال الشهوة... إن نظرة في عالم غير الراضين... عالم اليوم... عالم البطر في معمعة الرفاهية والمتع التي لا حدود لها... نظرة تعود منها بحقيقة رواج الفحش في السر والعلن... إرادات أضعف من أن تصمد أمام هوى النفس... إخبار العشق والخيانات الزوجية... إنه في الواقع غياب الرضا بالقسم وفقدان القناعة... فغير القانع دائم التطلع لما في أيدي الناس وما متع الله به غيره من خلق الله، وأول أدوات التطلع والمشاهدة هي العين، ومصيبة العين مع الشهوة أنها كما يقول الإمام الغزالي:

«فإن العين مبدأ الزنا فحفظهما مهم، وهو عسر من حيث أنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه وإلا فات كلها منه تنشأ. والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها... قال ﷺ: «لك الأولى وعليك الثانية»... أي النظرة... وقال العلاء بن زياد، لا تتبع بصرك رداء المرأة إن النظر يزرع في القلب شهوة، وقلما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان، فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل، فإنه ان حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر، وإن استقبح لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر. ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق...».

إن لـم يحفظ الإنسان عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه، وربما وقع في بلية لا يطيقها. وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج. من لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه...

قال عيسى عليه السلام: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة.

وقال سعيد بن جبير: إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه عليه السلام: يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة.

وقيل ليحيى عليه السلام: ما بدء الزنا؟ قال: النظر والتمني.

وقال الفضيل: يقول إبليس هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطىء به، يعني النظر.

وقال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»، فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً يجد حلاوته في قلبه».

وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». وقال ﷺ: «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء».

وقال تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [سورة النور، الآية: ٣٠].

وقال عليه السلام: «لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تـزنيان وزنـاهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبلة، والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه».

وقالت أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسـول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان، فقال عليه السلام «احتجبا» فقلنا: أو ليس بأعمى لا يبصـر؟ فقال: «وأنتما لا تبصرانه»؟.

تلك كانت مصيبة العين.. النظر والتطلع.. وإليك حكايات في فن المقاومة:

عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها ثم أعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق ملياً وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً، فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا اعتد الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها، وجملة ما أقول لك أن جوارحي كلها مشغولة بك فالله الله في أمري وأمرك، قال: فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي! فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله، وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم اعلمي أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه، فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكره يوماً تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم، وإن والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين فأقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم لازفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾ [سورة غافر،الآيات: ١٨، ١٩].

فأين المهرب من هذه الآية؟

... ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد

الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت: يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى، ثم بكت بكاء شديداً وقالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها تبعته وقالت: امتن عليّ بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأذكرك قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾. قال: فأطرقت وبكت بكاء شديداً أشد من بكائها الأول، ثم أنها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت في العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمداً، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكي، فيقال له: مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك؟ فيقول: إني قد ذبحت طعمها في أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى فأنا أستحي منه أن استردد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى.

## وحكاية

روي عن أبي بكر بن عبد الله المزني: أن قصاباً أولع بجاريه لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية فتبعها وراودها عن نفسها، فقالت له: لا تفعل لأنا أشد حباً لك منك ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا إلا أخافه! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: مالك؟ قال: العطش، قال: تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال: مالي من عمل صالح فأدعو، فادع أنت، قال: أنا أدعو وأمن أنت على دعائي، فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه، فقال له الرسول زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني بأمرك، فأخبره فقال الرسول: إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه.

## وحكاية

روي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت

تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له أنت يوسف: قال: نعم أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم، أشار إلى قوله «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه».

وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا. وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى نزلا بالإيواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً، وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجمل الناس وجهاً وأورعهم، فرصدت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه - وعليها البرقع والقفازان - فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت اهنئني، فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله؟ فقال: جهزك إلى إبليس؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها. وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك؟ قال: خير ذكرت صبيتي. قال: لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديداً فقال سليمان: وأنت ما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك لأني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها، فلم يزالا يبكيان، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر، فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام وإذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان: رحمك الله من أنت؟ قال: أنا يوسف، قال: يوسف الصديق؟ قال نعم، قال: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجباً! فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الإيواء أعجب.

## وحكاية

روي عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى

بصالح أعمالكم فقال رجل منهم: اللهم إنك تعلم إنه كان لي إيوان شيخان كبيران وكنت لا أعبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فجلبت لهما فبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أعبق قبلهما أهلاً ومالاً، فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمي فاستيقظا فشربا عبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. وقال الآخر: اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إني استأجرت اجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذي له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني حين فقال: يا عبد الله أعطني أجري، فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله أتهزأ بي؟ فقلت: لا أستهزىء بك فخذه، فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون.

ذُكر عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: «يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها كثير من الناس، فاجعل سفينك فيها تقوى الله تعالى....

قال بعضهم:

| | |
|---|---|
| إن لله عباداً فطناً | طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا |
| نظروا فيها فلما علموا | إنها ليست لحي وطنا |
| جعلوها لجنة واتخذوا | صالح الأعمال فيها سفنا |

... ففي هذه الأعمال الصالحة بضاعتك التي تحمل فيها، والحرص عليها

ريحك، والأيام موجها، والتوكل ظلها، وكتاب الله دليلها، ورد النفس عن الهوى حبالها، والموت ساحلها، والقيامة أرض المتجر التي تخرج إليها، والله مالكها».

فكثير من التقوى يرجع إلى الخوف من الفتن، وذكرنا أن العين ـ في شأن النساء واشتهاء النساء ـ مدخل للافتتان. . . . فإذا كانت العين والنظرة هذه المكانة الخطرة في ظل ظروف طبيعية ـ والمقصود بصروف طبيعية هنا هو أن يكون خُلُق الإسلام الاجتماعي والاقتصادي هو السائد ـ فما بالنا بتلك المكانة في ظل ظروف مغايرة؟!. . . ظروف اقتصادية تضغط بكل قوَّتها فتصرف مفاهيم وقناعات بل وعادات وتقاليد طالما تعايش بها وفي ظلها الناس كأطر طبيعية تحفظ ارتباطاتهم وعلاقاتهم متوافقة تفاعل وتسفر عن نتائج طبيعية أيضاً، ذلك لتحل مكانها مفاهيم وقناعات أخرى جديدة تتفق وهذه الأوضاع الاقتصادية المغايرة لتتفاعل وتسفر عن نتائج مغايرة تماماً كمعطياتها. . . فمنذ اشتدت وطأة الظروف الاقتصادية انسحبت آثارها على الأوضاع والعلاقات الاجتماعية بالسلب. . . تعاظم الدور المادي للفرد فأصبحت المادة هي كل معيار التقييم، ومن ثم قامت علاقات اجتماعية جديدة في صورة زيجات أساسها القدرة المادية قبل النظر في مسائل التوافق والتكافؤ والتناسب العُمْري بين المتزوجين لتسفر عن تعايش زواجي غير منسجم منه تنشأ الكثير من الترديات الاجتماعية التي نعانيها، فنفوذ أمال لا يصمد طويلاً في واقع الأمر أمام مسائل روحية ونفسية عديدة تكتنف علاقة الزوجية. . . فالمادة أولاً وأخيراً لا تعدو إحدى احتياجات إنسانية كثيرة، وليست هي الاحتياج الوحيد. . . ولعل ذلك له سبب في حوادث اجتماعية غريبة على مجتمعاتنا منها ارتباط المرأة الزوجة بعلاقة «صداقة» مع أحدهم!. . .

فأي صداقة تلك؟!. . إن أي علاقة علاقة رصدت من هذا النوع كشفت عن كونها تعويضية بكل المقاييس!. . فدائماً ما يكون الرجل الصديق متمتعاً بما يسد أوجه قصور موجودة في شخص الرجل الزوج!. . . ألا يصح أن يكون الرجل زوجاً وصديقاً لزوجته في ذات الوقت؟!. . . وأي مسافة تلك بين الوعي بضرورة غض البصر وبين علاقة صداقة تجيز إمعانه بل والإلتقاء منفردين والتحدث بطوايا النفس وخلجات الشعور؟!. . . وإن كنت اصطلحت للترديات هنا لفظ حوادث

فذلك لكوني في حقيقة الأمر لم أضع يدي على إحصاء واقعي يجعلني أجزم بكونها ظواهر، وعلى ذلك فسأظل أحتفظ لها بلفظ حوادث وأنا أضيف من مظاهر التردي الإجتماعي... فهناك حوادث التقاضي بدعاوى التطليق بعضها يأتي بسبب من زهق بمناخ زوجي غير متوافق والآخر وراءه صداقات تنامت ودخلت في طور العشق!... والزيجات العرفية... و... زيجات المتعة... والدعارة... و... حوادث قتل الأزواج!... إلخ، كلها تكشف عن تغيرات إجتماعية نشأت أصلاً من ضغوط اقتصادية عظمت من الدور المادي للفرد.

ونعود للمغزى من وراء ذلك للقول بأننا نعايش ظروفاً جعلتنا في كثير من الأحوال مستهدفين لسد نواقص في علاقات بعضنا البعض الشوعية... وسد هذه النواقص لا يأتي بالضرورة في أطر شرعية...! الأمر الذي يلزمه بالضرورة مجاهدة أكبر للنفس عما لو كنا في ظروف طبيعية خُلُق الإسلام الاجتماعي والاقتصادي هو السائد فيها... تلزمنا القناعة رضا بما قسم الله لنا، والتقوى، خوفاً من الفتن واستدلالاً بكتاب الله واقتداءً بسنة رسول الله ﷺ، رد النفس عن الهوى، الاعتبار، الموت، الصبر.....

ذُكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى، قال: أمر الله تعالى إبليس أن يأتي محمداً ﷺ، ويجيبه عن كل ما يسأله فجاءه على صورة شيخ وبيده عكاز. فقال له: «من أنت؟ قال: أنا إبليس فقال: «لماذا جئت؟» قال: أن الله أمرني أن آتيك وأجيبك عن كل ما تسألني، فقال النبي ﷺ: «يا ملعون كم أعداؤك من أمتي؟» قال خمسة عشر أولهم: أنت، والثاني إمام عادل، والثالث: غني متواضع، والرابع: تاجر صادق، والخامس: عالم متخشع، والسادس: مؤمن صالح، والسابع: مؤمن رحيم القلب، والثامن: تائب ثابت على التوبة، والتاسع: متورع عن الحرام، والعاشر: مؤمن يديم على الطهارة، والحادي عشر: مؤمن كثير الصدقة، والثاني عشر: مؤمن حسن الخلق مع الناس، والثالث عشر: مؤمن ينفع الناس، والرابع عشر: حامل القرآن يديم على تلاوته، والخامس عشر: قائم بالليل والناس نيام... ثم قال النبي ﷺ: «ومن رفقاؤك من أمتي؟» قال عشرة: أولها: سلطان جائر، والثاني: غني متكبر، والثالث: تاجر خائن، والرابع: شارب أخمر،

والخامس: القنات، والسادس: صاحب الزنا، والسابع: آكل مال اليتيم، والثامن: المتهاون بالصلاة، والتاسع: مانع الزكاة، والعاشر: الذي يطيل الأمل، فهؤلاء أصحابي وأخواني.

وقال بعض الفقهاء: اعلم أن لك أربعة من الأعداء، فتحتاج آن جاهد مع كل واحد منهم: أحدهما: الدنيا وهي غرارة مكارة، قال الله تعالى: **﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾** [سورة الرعد، الآية: ٢٦]، وقال تعالى: **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** [سورة لقمان، الآية: ٣٣].

**والثاني**: نفسك وهي شر الأعداء.

**والثالث**: الشيطان.

**والرابع**: شيطان الإنس... فاحذره فإنه أشد عليك من شيطان الجن، لأن شيطان الجن يكون أذاه بالوسوسة، وشيطان الإنس هو رفيق السوء، يكون اذاه بالمواجهة والمعاينة لا يزال يطلب عليك وجهاً يردك عما أنت فيه.

وروي عن أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«المؤمن بين خمس شدائد، مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وعدو يقاتله، وشيطان يضله، ونفس تغويه» يعني أن النفس مائلة إلى ما هو سبب ضلالته وإغوائه، فينبغي للمسلم أن يستعين بالله تعالى ليقويه على أعدائه، ويوفقه لما يحب ويرضى، فإن هذا كله يسير على من يَّسره الله تعالى عليه.

وذكر عن وهب بن منبه، رحمه الله تعالى أنه قال: إن إبليس لقى يحيى ابن زكريا عليهما السلام فقال يحيى بن زكريا: أخبرني عن طبائع ابن آدم عندكم؟ فقال إبليس: أما صنف منهم، فهو مثلك معصومون ولا نقدر منهم على شيء، والصنف الثاني: فهم في أيدينا كالكرة في أيدي صبيانكم، وقد كفونا أنفسهم، والصنف الثالث: فهم أشد الأصناف علينا، فنقبل على أحدهم حتى ندرك منه حاجتنا ثم يفزع إلى الاستغفار فيفسد به علينا ما أدركنا منه، فلا نحن نيأس منه، ولا نحن ندرك حاجتنا منه.

قيل لحاتم، رضي الله تعالى عنه، علامَ بنيت عملك؟ قال: على أربع:

أحدهما: إني علمت أن لي رزقاً لا يجاوزني إلى غيري كما لا يجاوز رزق أحد إليَّ فوثقت به.

والثاني: علمت أن علي فرضاً لا يؤديه غيري، فأنا مشغول به.

والثالث: علمت أن ربي يراني كل وقت، فأستحي منه.

والرابع: علمت أن لي رجلاً يبادرني، فأنا أبادره.

وعن حذيفة بن اليمان، رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها أشراط «تقاب الأسواق» (يعني كسادها) «ومطر ولا نبات وتفشو العينة» (يعني أكل الربا) «وتظهر أولاد البغية» (يعني أولاد الزنا) «ويعظم رب المال» «وتعلو أصوات الفسقة في المساجد. ويظهر أهل المنكر على أهل الحق». قال: وكيف تأمرني يا رسول الله؟ قال ﷺ: «فر بدينك، أو كن حلساً من أحلاس بيتك»[1].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء، ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين، وأمر الرجال بغض أبصارهم ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة وأخبر أنه ما خلى خلا بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

## أضرار غير القانع بنفسه ومجتمعه

قد يعيدنا ذلك إلى الاسترسال في مظاهر الشقاء في حياتنا من قبيل الاستدلال على التفاعلات التي تنتجها ممارساتنا العارية من قناعة... وكنا قد أشرنا إلى ابتلائنا بصراعات المظهر الحضاري ومستويات الرفاهة التي استوعبت أكثر جهدنا ووقتنا على حساب عباداتنا ومتطلبات علاقاتنا الاجتماعية منها مراعاة الأسرة والبيت وتنشئة أجيال صالحة... ودللنا على ذلك بالذي ينفق جل وقته في الجمع بين أكثر من عمل يبتلعه من دوره الاجتماعي... والذي يسافر تاركاً وراءه حليلته وأبناءه في مراحل سنية تستوجب الاحتضان والدفء الاجتماعي... وما يتخلف عن ذلك من نشوء فروع لا تربطها بالأصول سوى مسميات الأبوة والأمومة

(١) (حِلْس) البيت كساء يبسط تحت حُرّ الثياب... و(كُنْ حِلْسَ بيتك) أي لا تَبْرَح.

بينما تتحرك في مجتمعها ككيانات عشوائية تعبِّر بكل ما تستطيع عن اختلافات وتناقضات كثيرة في مكوناتها النفسية بلغت في بعض الأحيان حد قتل الإبن أحد أبويه أو كليهما!!.

وخذ عندك... استشراء الرشوة، والغش، والتصاعد في جرائم السرقة والاختلاس... والخيانات الزوجية... وتسلسل جرائم قتل الأزواج... وانظر حولك لعلك تلمس علو نبرة الباطل على صوت الحق، وإننا في غمرة تهافتنا على خلق مظهر حضاري نتردى بسلوكياتنا إلى عهود البلطجة وسطوة العنف ونفوذ القوة المتبجحة على كافة الأصعدة والمستويات... ولعلك أيضاً تتفق معي في ضرورة البحث عن إجابة لسؤال مدهش: فلماذا تتسم علاقات معظمنا بالوفاق والحلم مع الآخرين بينما تتسم بالندية وربما العداء مع إخواننا وأقاربنا الملازمين وجيرتنا المتاخمة؟!.

فمنه أدلة على ما تنتجه صراعاتنا في نفوسنا غير القانعة، وما تجره علينا وعلى غيرنا من أضرار بعد أن تستوطن فيها أشر العلل ومنها:

## الحسد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيصيب أمتي داء الأمم، وقالوا: وما داء الأمم؟ قال ﷺ: الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج».

وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويتقاتلون».

فأصل العداوة والتزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها... ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا... وقد قيل في أسباب الحسد: إنها العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها، وأشدها: العداوة والبغضاء فإن من أذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام،

فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما. . . وأما الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلك دونه فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته. . . وأما حب الرياسة والجاه فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك. . . وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشغل فيما أنعم عليه به. شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. . .

وقال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره. فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد. . .

إن الحسد يكثر بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والأخوة، وبني العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها، فيثور التنافر والتباغض. . . وقد ورد في ذم الحسد أخبار كثيرة:

قال رسول الله ﷺ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». . . وقال ﷺ في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً». . . وقال أنس: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة» فقال: فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان الغد قال ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل، وقاله في اليوم الثالث

فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: إني لأجبت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت، فقال «نعم» فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم لصلاة الفجر، قال: غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أراك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله: فقلت «هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق»

وقال رسول الله ﷺ: كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يَغلِب القدر».

وروي أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك عن عمله بثلاث: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة.

وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: الحاسد عدو لنعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي.

وقال ﷺ: «إن لنعم الله أعداء». فقيل ومن هم؟ فقال «الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله».

وقال ﷺ: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».

وقال بعض السلف:

«أول خطيئة هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية».

وحُكي أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال: إني أريد أن أعظك بشيء، فقال: وما هو؟ قال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به، ثم قرأ:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾[سورة البقرة، الآية :٣٤].

وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة. أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منه، ثم قرأ: ﴿اهبطوا منها﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣٨].

إلى آخر الآية... وإياك والحسد فإنما قَتل ابن آدم أخاه حين حسده، ثم قرأ: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢٧].

... وإذا ذُكر أصحاب رسول الله ﷺ فأمسك، وإذا ذُكر القدر فاسكت، وإذا ذُكرت النجوم فاسكت.

## وحكاية

قال بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملكَ أبخر، فقال له الملكُ: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك، فدعا الرجلَ إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فقال له الملك: إدن مني، فدنا منه، فوضع يده على فيه مخافة أن يشتم الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدق؟... قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صِلة فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب، قال خط الملك لي بصِلة، فقال: هبه

لي!... فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي وأنظر حتى تراجع الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله، فعجب الملك، وقال: ما فعل الكتاب؟ قال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال له الملك: إنه ذكرني أنك تزعم أني أبخر، قال: ما قلت ذلك؟ قال: فلِمَ وضعت يدك على فيك، قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمه، قال: صدقت، ارجع إلى مكانك فقد كفى المسيء إساءته.

وقال ابن سيرين رحمه الله: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟.

وقال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟. نعم، ولكن غمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولا لساناً.

وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها... ولذلك قيل:

كل العداوات قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى. وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، أنه يرى النعمة عليك نقمة عليه.

وقال الحسن: يا بن آدم لِمَ تحسد أخاك؟ فإن كان كل الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلِمَ تحسد من مصيره إلى النار؟.

وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولاً ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً.

## مداخل الحسد وأسبابه

**السبب الأول:** العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه

شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد... والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بَلِيّة فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه... وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وَصَف الله تعالى الكفار فيه إذ قال تعالى: **﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. أن تمسسكم حسنة تسؤهم﴾** [سورة آل عمران، الآية: ١١٩].

وكذلك قال: **﴿ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾** [سورة آل عمران، الآية: ١١٨].

والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه.

**السبب الثاني**: التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضى بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

**السبب الثالث**: الكبر، وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوّف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه. ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ، إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطىء رؤوسنا؟

فقالوا «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» إن كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيماً، وقال تعالى يصف قول قريش: «أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا» كالاستحقار لهم والإنفة منهم.

**السبب الرابع**: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السابقة إذ قالوا «ما أنتم إلا بشر مثلنا» «وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا» «ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون». . . . فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحيِ والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يُفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين «أبعث الله بشراً رسولاً» وقالوا «لولا أنزل علينا الملائكة» وقال تعالى: ﴿أوعجبتم إن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾.

**السبب الخامس**: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرّات في التزاحم على مقصاد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بها إلى أغراض له.

**السبب السادس**: حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده، وليس السبب في هذا عداوة

ولا تعزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد. وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة، وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تُبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى... فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وُصِف له اضْطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت الجبلة ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع في إزالتها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته. فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوي قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل ينتهك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة، وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها.

## دواء القلب من مرض الحسد

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي:

«... أما ضرره عليك في الدين إنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً

من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه الخبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار...

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو إنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم إذا أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل فيك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم للقلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يتحمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة؟

... إن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً.

ولذلك قيل:

لا مات أعداؤك بل خلدوا     حتى يروا فيك الذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة     فإنما الكامل من يُحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده، فما أنت فيما تلازمه من غم

الحسد إلا كما يشتهيه عدوك، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة، وصرت مذموماً عن الخلائق شقياً في الحال والمال ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك، لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحنة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب، فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما تلحقه بعملك.

وقد قال أعرابي للنبي ﷺ: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال النبي ﷺ «المرء مع مَنْ أحَب». . . وقام أعرابي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟، فقال «ما أعددت لها؟». . . قال: ما أعددت لها من كثير الصلاة والصيام إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع مَن أحببت».

. . . قال أنس: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ، إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كان حب الله ورسوله. . . قال أنس: فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم. . . وقال أبو موسى: قلت يا رسول الله، الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويحب الصوّام ولا يصوم، حتى عد أشياء.

فقال النبي ﷺ: «هو مع مَن أحَب». . . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً، فإن لم تستطع أن تكون عالماً فكن متعلماً، فإن لم تستطع أن تكون متعلّماً فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال: سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجاً.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوّت عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به

حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت، وكيف لا وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطىء في دين الله تعالى ونكشف خطأه ليفتضح؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي إثم يزيد على ذلك؟ فليتك إذا فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة، وقد جاء في الحديث «أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحب له والكاف عنه» أي مَن يكف عن الأذى والحسد والبغض والكراهة، فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها البتة، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهماً إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقتلعها، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه فيعود على رأسه فيشجه، وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه، وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه، بل حالك في الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة، والحسد يعود بالإثم والإثم لا يفوت الموت، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار... فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار... فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد، إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٨].

وربما يبلى بعين ما يشتهيه لعدوه، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبلى بمثلها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما تمنيت لعثمان شيئاً إلا نزل بي، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت. بهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء؟ وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة.

فهذه هي الأدوية العلمية، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صافٍ وقلب

حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مُهلك نفسه ومُفرح عدوه ومُسخط ربه ومنغص عيشه. وأما العمل النافع فهو أن يحكم الحسد، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسودُ طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه، وتولد مع ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله إلى مقابلة ذلك بالإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً: طبعاً آخر ولا يصدنه عن ذلك قول للشيطان له لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وإن ذلك مذلة ومهانة، وذلك من خداع الشيطان ومكايده، بل المجاملة ـ تكلفاً كان أو طبعاً ـ تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

## إيذاء الجار

وجدنا الإجابة على «لماذا تتسم علاقات معظمنا بالوفاق والحلم مع الآخرين بينما تتسم بالندية وربما العداء مع إخواننا وأقاربنا الملازمين وجيرتنا المتاخمة»؟.. وجدناه في أن أصل العداوة بين الناس التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، ومنشأ ذلك حب الدنيا.. وإن أشد أسباب الحسد «العداوة والبغضاء» فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام...

فلا بد إذن من وقفة عند علاقة الجوار:

قيل: إن تمام حسن الجوار في أربعة أشياء:

**أولها:** أن يواسيه بما عنده.

**الثاني**: أن لا يطمع فيما عنده.

**الثالث**: أن يمنع إذاه عنه.

**الرابع**: أن يصبر على إذاه.

وروي عن رسول الله ﷺ، أن رجلاً جاء إليه يشكو جاره، فقال رسول الله ﷺ: «كف أذاك عنه واصبر على أذاه، وكفى بالموت فراقاً».

وقال الحسن البصري: ليس حسن الجوار كف الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى من الجار.

وقال عمرو بن العاص: ليس الواصل الذي يصل من وصله ويطع من قطعه، وإنما ذلك المنصف، وإنما الواصل الذي يصل من قطعه ويعطف على من جفاه، وليس الحليم الذي يحلم عن قومه ما حلموا عنه، فإذا جهلوا عليه جاهلهم، وإنما ذلك المنصف، إنما الحليم الذي يحلم إذا حلموا، فإذا جهلوا عليه حلم عنهم.

وقال بعض الفقهاء: ينبغي للمسلم أن يصبر على أذى الجار، ولا يؤذي جاره، ويكون بحال يكون جاره آمناً منه، وأمانه لجاره يكون بثلاثة أشياء: باليد وباللسان وبالعورة، فأما أمانه بلسانه فهو أن لا يكلم بكلام لو دخل عليه جاره لسكت، أو لو بلغ إلى جاره لاستحى منه، وأما أمانه بيده فهو أن جاره لو كان بالسوق وتذكر أن كيسه نسيه في منزله، فإنه لا يخاف عليه ويقول منزله ومنزلي سواء، وأما أمانه بالعورة فهو إنه لو كان في السفر فبلغه أن جاره دخل منزله، لسكن قبله وفرح.

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم الناس من لسانه ويده، ولا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه»... قلنا: يا رسول الله وما بوائقه؟ قال: غشه وظلمه».

وعن مجاهد، قال عبد الله بن عمرو بن العاص لغلامه: اذبح الشاة واطعم جارنا اليهودي، ثم تحدث ساعة، فقال: يا غلام إذا ذبحت الشاة فأطعم جارنا اليهودي. فقال الغلام: قد آذيتنا بجارك هذا اليهودي، فقال عبد الله بن عمرو: ويحك أن النبي ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه.

وعن الحسن البصري: قيل يا رسول الله ما حق الجار على الجار؟ قال: «إن استقرضك أقرضته، وإن دعاك أجبته، وإن مرض عُدْته، وإن استعان بك أعنْته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن أصابه خير هنيّته، وإن مات شهدته، وإن غاب حفظته، يعني منزله وعياله، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تهدي إليه».

وروي في خبر آخر زيادة على هذه التسعة، والعاشر أن لا تطيل بناءك عليه إلا بطيبة من نفسه.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب».

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق، ومنهم من له حقان، ومنهم من له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فجارك القريب المسلم، وأما الجار الذي له حقان فجارك المسلم، وأما الذي له حق واحد فجارك الذمي».

يعني إذا كان الجار قريب وهو مسلم فله حق القرابة، وحق الإسلام، وحق الجوار، وأما الذي له حقان فالجار المسلم، فله حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له حق واحد فجارك الذمي، فله حق الجوار، فينبغي أن يعرف حق الجار وإن كان ذمياً.

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: عشرة أشياء من الجفاء:

**أولها**: رجل أو امرأة يدعو لنفسه ولا يدعو لوالديه والمؤمنين.

**الثاني**: رجل يقرأ القرآن ولا يقرأ في كل يوم مائة آية.

**الثالث**: رجل دخل المسجد وخرج ولم يصل ركعتين.

**الرابع**: رجل يمر على المقابر ولم يسلم عليهم ولم يدع لهم.

**الخامس**: رجل دخل مدينة في يوم الجمعة، ثم خرج ولم يصل الجمعة.

**السادس**: رجل أو امرأة نزل في محلتهما عالم، ولم يذهب إليه أحد ليتعلم منه شيئاً من العلم.

السابع: رجلان ترافقا ولم يسأل أحدهما عن اسم صاحبه.
الثامن: رجل دعاه رجل إلى ضيافة فلم يذهب إلى الضيافة.
التاسع: شاب يضيع شبابه وهو فارغ ولم يطلب العلم والأدب.
العاشر: رجل شبعان وجاره جائع ولا يعطيه شيئاً من طعامه.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ثلاثة أخلاف كانت في الجاهلية مستحبة والمسلمون أولى بها، أولها لو نزل بهم ضيف لاجتهدوا في بره. والثاني لو كانت لواحد منهم امرأة كبرت عنده لا يطلقها، ويمسكها مخافة أن تضيع، والثالث: إذا لحق بجارهم دين أو إصابة شدة أو جهد، اجتهدوا حتى يقضوا دينه وأخرجوه من تلك الشدة.

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول يا رب وسّعْتَ على أخي هذا، وقترت عليَّ، أمسي جائعاً ويمسي هذا شبعان، فسله لم أغلق بابه دوني وحرمني ما قد وسعت عليه».

## البخل

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مر النبي ﷺ برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: أسألك بحرمة هذا البيت أن تغفر لي، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عبد الله سل بحرمتك فإن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة هذا البيت»، فقال: يا رسول الله إن لي ذنباً عظيماً. فقال: «وما ذنبك»؟، قال: إن لي مالاً كثيراً، وإن ماشيتي كثيرة، وإن خيلي كثيرة، ولكن الرجل إذا سألني شيئاً من مالي فكأن شعلة من نار تخرج من وجهي، قال رسول الله ﷺ: «تنح عني يا فاسق لا تحرقني بنارك، والذي نفسي بيده لو صمت ألف عام، وصليت ألف عام ثم مت لئيماً لأكبك الله في النار، أما علمت أن اللؤم من الكفر والكفر في النار، والسخاوة من الإيمان والايمان في الجنة».

وروي عن النبي ﷺ أنه سئل فقيل: يا رسول الله إذا خرجت من الدنيا فظهر الأرض خير لنا أم بطنها»؟... قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: قال النبي ﷺ: إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياؤكم، وأموركم شورى بينكم، فظهر

الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلائكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أتاهم الله من فضله﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٧].

وعن النبي ﷺ أنه قال: البخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار، والسخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد عن النار.

وقال ﷺ: «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم ألا أن الله عز وجل خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوبى، وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، ألا أن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة، وخلق البخل من مقته وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار، ألا أن البخل من الكفر والكفر في النار».

وقد قتل شهيد على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية فقالت: واشهيداه! فقال ﷺ: «وما يدريك أنه شهيد، فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه».

وقال رسول الله ﷺ «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماهم واستحلوا محارمهم».

وعنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة».

وروي عن أبي أمامة الباهلي:

إن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال «يا ثعلبة

قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال «يا لثعلبة أما لك في أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى؟ أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت»، قال: والذي بعثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، ولأفعلن ولأفعلن، قال رسول الله ﷺ «اللهم ارزق ثعلبة مالاً»، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنا فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود وحتى ترك الجمعة وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة، وسأل رسول الله ﷺ فقال «ما فعل ثعلبة بن حاطب؟» فقيل: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة، وأخبر بأمره كله، فقال «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» قال وأنزل الله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم أن صلاتك سكن لهم**﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٣] وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصدقة، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين وقال «مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بني سليم - وخذا صدقاتهما: فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية... ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليّ، فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما فقام إلى أخيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: لا يجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك، قال: بلى خذوها، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فلما رآهما قال «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلماه ودعا للسليمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السليمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله وعده وبما كان يكذبون**﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٧] وعند رسول الله ﷺ رجل من

أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أم لك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا، فخرج ثعلبة حتى آتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه فقال رسول الله ﷺ «هذا عملك أمرتك فلم تطعني» فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان.

وروي أن يحيى بن زكريا عليهما السلام، لقي إبليس في صورته فقال له: يا إبليس أخبرني بأحَب الناس إليك وأبغض الناس إليك، قال: أحَب الناس إليّ المؤمن البخيل وأبغض الناس إليّ الفاسق السخي، قال له: لِمَ؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا أرى أن أعدل بخيلاً لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يُغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة.

## أسباب البخل

وفي البخل يقول الإمام أبو حامد الغزالي:

اعلم أن البخل سببه حب المال... ولحب المال سببان:

**أحدهما**: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب... وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «الولد مبخلة مجبنة مجهلة» فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

**الثاني**: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمرة إذا

اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عن المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة.

هذا وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي بكر لشر أراده بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلها، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله.

## علاج البخل

وفي علاج البخل يقول الإمام الغزالي:

«. . . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر، وإن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه. ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم، ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه، ويعالج أيضاً قلبه بأن

يتفكر في مقاصد المال. وأنه لماذا خلق؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدَّخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله، فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف فإن الشيطان يعده الفقر ويخوّفه ويصده عنه.

حُكي أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال: انزع عني القميص وادفعه إلى فلان، فقال: هلا صبرت حتى نخرج؟ قال: لم آمن على نفسي أن تتغير، وكان قد خطر لي بذله!.

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره، حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدة تسلّى عنه قلبه، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له. ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عن فطامها عن المال، كما يسلّى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب، ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء، فيبذل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع عن علة ويزيد في أخرى مثلها، إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء، فلذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه.

ومثال ذلك دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال أن الميت تستحيل

جميع أجزائه دوداً ثم يأكل بعض الديدان البعض، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى إثنتين قويتين عظيمتين، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها، ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها، ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة أعمالاً، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت. مثل البخل فإنه يقتضي إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه، فإن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمي ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت.

## وحكاية

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده:

- كيف ترى هذا؟

قال: أراه مصيبة أو فقراً.

قال: كيف؟!.

قال: إن كسر كان مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر...

... ثم اتفق يوماً أن كُسر أو سُرق وعظمت مصيبة الملك عليه، فقال: «صدق الحكيم، ليته لم يحمل إلينا...».

وهذا شأن جميع أسباب الدنيا، فإن الدنيا عدوةٌ لأعداء الله تسوقهم إلى

النار، وعدوة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوةً الله إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس. والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل، ولا يحتاج إليه، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

## وعلى العبد وظائف في ماله

. . . . ما زال الكلام للإمام الغزالي:

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه، ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري، ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

**الأولى**: أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

**الثانية**: أن يراعي جهة دخل المال فيتجنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه.

**الثالثة**: في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم، ولكل واحد ثلاث درجات: أدنى، وأوسط، وأعلى، ومدام مائلاً إلى جانب القلة ومقرباً من حد الضرورة كان محقاً ويجيء من جملة المحقين، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا أخر لعمقها.

**الرابعة**: أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر

فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء.

**الخامسة**: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال، ولذلك قال علي رضي الله عنه: لو أن رجلًا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد. فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقك، وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته.

. . . فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حبة المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال.

## الاحتكار

في مختار الصحاح: (احتكار) الطعام جمعه وحبسه يتربص به الغلاء. قال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمة الله تعالى عليه: حدثنا أبو الحسن الحاكم السردي، حدثنا بكر بن المثنى، حدثنا هانيء بن النضر، حدثنا أحمد بن خالد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم عن سعيد بن المسيب عن معمر بن عبد الله العدوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحتكر إلا خاطىء».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد بريء من الله تعالى وبريء الله منه».

وقال بعض الفقهاء: الحكرة أن يشتري الطعام في مصره ويحبسه عن البيع وللناس حاجة إليه، فهذا هو الاحتكار الذي نهى عنه، وأما إذا دخل له الطعام من

ضيعه، أو جلب من مصر آخر، فإنه لا يكون احتكاراً، ولكن لو كان للناس إليه حاجة فالأفضل أن يبيعه. وفي امتناعه عن ذلك يكون مسيئاً لسوء نيته، وقلة شفقته للمسلمين. فينبغي أن يجبر المحتكر على بيع الطعام، فإن امتنع من ذلك فإنه يعزر ويؤدب ولا يسعر عليه. ويقال له بعد كما يبيع الناس.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا لا أسعر فإن الله تعالى هو المسعر».

وفي أيامنا هـذه يتخذ الاحتكـار ـ عيانـاً جهاراً ـ وسيلة من وسـائل إنمـاء الثروات، بل أن كثيرين ممن يعملون في سوق المال والتجارة إنما انطلقوا من قاعدة الاحتكـار وما كـانوا قبـل أن يستغلوا معانـاة الناس شيئـاً يذكـر في عالم المعاملات التجارية. . فيكفي أن تتواتر الشائعات عن أن سلعة ما من تلك السلع التي هي من صميم احتياجات الناس، حتى يتكالب التجار على جمع أكبر كميات منها ويتفننون في إخفائها عن أعين الناس، حتى إذا أُعلِنَ سعرُ جديد لتلك السلعة وجدناها من بعد احتجاب تملأ الأسواق وكأن السماء قد أمطرتها! . . بل أنه بعض التجار قد دأبوا على تجنيد المصادر في مواقـع المسؤولية يستقـون منهم حركـة التسعيـر أولاً بأول لتكـون لهم أسبقية الاحتكـار عن غيرهم! . . ومن هنـا وعى الناس ـ ولكنه الوعى العاجز عن حيلة ـ سر احتجاب سلعة مـا أو اختفائهـا من الأسواق. . فهذا في واقع الأمر أتخذ مؤشراً حقيقياً على أن تلك السلعة سوف يزيد سعرها وإن أغلب ميزة ذلك ستعود على طائفة المحتكرين! .

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الغلاء والرخص جندان من جنـود الله تعالى. اسم أحدهما الرغبة واسم الآخر الرهبة، فإذا أراد الله تعالى أن يُرخصه، قذف الرهبة في قلوب الرجال، فأخرجه من أيديهم فرخص، وإذا أراد الله تعالى أن يغليه، قذف الرغبة في قلوب الرجال فحبسوه في أيديهم».

وذكر في الخبر أن عابداً من عباد بني إسرائيل مر على كثيب من الرمل، فتمنى في نفسه لو كان دقيقاً فأشبع به بني إسرائيل في مجاعة اصابتهم. فأوحى الله تعالى، إلى نبي فيهم أن قل لفلان أن الله تعالى قد أوجب لك من الأجر ما لو كان دقيقاً فتصدقت به. يعني أنه نوى نية حسنة أعطاه الأجر بحسن نيته وشفقته على

المسلمين ورحمته لهم . . فينبغي للمسلم أن يكون مشفقاً رحيماً على المسلمين.

وروى الشعبي أن رجلاً أراد أن يسلم ابنه إلى عمل، فاستشار النبي ﷺ في ذلك فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسلمه إلى حناط يبيع الحنطة، ولا إلى جزار ولا إلى من يبيع الأكفان» . . أما الحناط فلأن يلقى الله تعالى زانياً، أو شارب خمر خير له من أن يلقى الله تعالى هو قد حبس الطعام، أربعين ليلة، وأما الجزار فإنه يذبح حتى تذهب الرحمة من قلبه، وأما بائع الأكفان فإنه يتمنى لأمتي الموت، والمولود من أمتي أحب إليّ من الدنيا وما فيها».

وقيل: أن علامات السعادة إحدى عشر خصلة:

**أولها**: أن يكون زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة.

**الثاني**: أن يكون همته العبادة وتلاوة القرآن.

**الثالث**: قلة القول فيما لا يحتاج إليه.

**الرابع**: أن يكون محافظاً على الصلوات الخمس.

**الخامس**: أن يكون ورعاً فيما قل أو كثر من الحرام.

**السادس**: أن تكون صحبته مع الصالحين.

**السابع**: أن يكون متواضعاً غير متكبر.

**الثامن**: أن يكون سخياً كريماً.

**التاسع**: أن يكون رحيماً بخلق الله تعالى.

**العاشر**: أن يكون نافعاً للخلق.

**الحادي عشر**: أن يكون ذاكراً للموت كثيراً.

وعلامات الشقاء أيضاً إحدى عشر خصلة:

**أولها**: أن يكون حريصاً على جمع المال.

**الثاني**: أن يكون نهمته في الشهوات واللذات في الدنيا.

**الثالث**: أن يكون فحاشاً في القول مكثاراً.

**الرابع**: أن يكون متهاوناً في الصلوات.

**الخامس**: أن يكون أكله من الحرام والشبهات وصحبته مع الفجار.

**السادس**: أن يكون سيء الخلق.

**السابع**: أن يكون مختالاً متكبراً فخوراً.

**الثامن**: أن يمنع منفعته من الناس.

**التاسع**: أن يكون بخيلاً.

**العاشر**: أن يكون ناسياً للموت. يعني أن الرجل إذا كان ذاكراً للموت، فإنه لا يمنع طعامه من البيع ويرحم المسلمين.

وذكر عن بعض الزهاد أنه كان في بيته وقر من الحنطة فقحط الناس، فباع ما عنده من الحنطة، ثم جعل يشتري لحاجته، فقيل له: لو أمسكت ما عندك؟ فقال: أردت أن أشارك الناس في غمهم.

## النفاق والرياء

إن غياب القناعة يلزم الإنسان من ضمن ما يلزمه من خصال رديئة «النفاق والرياء»... فما زال بحاجة للنفاق ليتزلف لصاحب السلطان أو المال ليجاري نهم نفسه الذي لا ينفض لأي منهما، وما زال يرائي حتى يبدو الأحرى بالعطايا والمنح والثناءات...

## وفي الرياء يقول الإمام أبو حامد الغزالي:

«اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من المساع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بايرائهم خصال الخير.... وللمرائي مقصود لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

**الأولى**: وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يُعرف بالامانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوسايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على

سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أوغلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام. وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال أنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره، وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء فيقصد أما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته، فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال أنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول ما أعظم غفلة الأدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير. وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو

عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الاكل لأجله، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال أنه ساتر لعبادته، ثم أن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع الصوم، أو يقول افطرت تطبيباً للقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياء، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً، مثل أن يقول: أن فلاناً محب للأخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح عليَّ اليوم ولم أجد بداً من تطبيب قلبه، ومثل أن يقول: أن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم.. فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن... أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه؟..

## أما في خصلة النفاق

فقد قيل لابن عمر رضي الله عنهما، أنا ندخل على السلطان فنتكلم بالكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه، قال: كنا نعدها من النفاق.

فخصلة النفاق تدفع راغباً في ميزة مادية أو أدبية لتزلف من ارتآه يستطيع منح تلك الميزة الراغب فيها، ومن ثم يتفنن في إعمال المناسب من وسائل وأدوات التزلف... فإن كان صاحب القدرة المادية والمنح الأدبية ممن يستهويهم الإمعان في التبجيل والثناء على شخصه، راح المنافق يطريه ولا يفتأ يثني على شخصه ويمدحه وينعته بما يعلم أن يطيب قلبه من النعوت ويرضي غروره.. وإن كان لصاحب القدرة ذلك منافس في المكانة أو التجارة اتخذ المنافق من سيرة منافسه واستعراض مسالبه وإبداء كراهته له وسيلة للتزلف والبرهنة على أنه الحليف أو الخادم الطيع الذي يحب ما يحب سيده ويكره ما يكرهه..! حتى إذا بلغ الأمر حد الخصومة قد يجعل المنافق نفسه شريكاً للمتزلف إليه يخاصم خصومه ويعادي

أعداءه!... ولتضيع ما تضيع من حقوق الآخرين من خلق الله، وليبقى دائماً صاحب الغرض أعمى عن الحق.

وخذ عندك بعض ما جاء في ذلك:

عن عبيد الله بن عمير. أن النبي ﷺ قال: «ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله، إلاّ اشتد حسابه».

وقال بعض المتقدمين: دخولك على الملوك يدعوك إلى ثلاث: إيثارك رضاهم، وتعظيمك دنياهم، وتزكيتك عملهم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: اجتنبوا أبواب الملوك، فإنكم لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من أخرتكم ما هو أفضل منه.

وذكر أن عيسى بن موسى، لقي ابن شبرمة فقال له: ما لك لا تأتينا؟ قال وما أصنع بإتيانك؟ إن قربتني فتنتني، وأن أبعدتني أذيتني، وما عندي ما أخافك وما عندي ما أرجوك.

وقال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء.

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن الرجل ليدخل على ذي سلطان، ومعه دينه، يخرج وما معه دينه، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يرضيه بما يسخط الله.

وعن الضحاك بن زاحم قال: إني لأتقلب الليلة كلها على فراشي، التمس كلمة أرضي بها سلطاني، ولا أسخط بها خالقي، فلا أقدر عليها.

وعن النبي ﷺ أنه قال لكعب بن عجرة: «يا كعب أعيذك بالله من إمارة السفهاء، ثلاث مرات، أمراء يكونون من بعدي، فمن صدقهم على كذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك مني براء، وأنا منهم بريء، يا كعب بن عجرة، كلُ لحم نبتٌ من السّحت، فالنار أولى به، يا كعب بن عجرة الصوم الجنة، والصدقة

تطفي الخطيئة، والصلاة قربان، يا كعب بن عجرة، الناس غاديان. فمبتاع نفسه، فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها».

وعن موسى بن عبد الصمد، عن زاذان قال: «كنا مع عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، على سطح له، وله من رسول الله ﷺ صحبة، فرأى الناس يتحملون وينتقلون، فقال: ما بالهم؟ قيل: يفرون من الطاعون. فقال يا طاعون خذني يا طاعون خذني، فقيل له: لم تدعو بالموت وأنت صاحب رسول الله، وقد سمعته ينهي عنه. فقال: أسأل الله الموت لخصال ست، رأيت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمته، قلنا ما هن؟ قال: إمارة الصبيان، وكثرة الشرط، والرشوة في الحكم، وقطيعة الرحم، واستخفاف بالذمة، ونشء يتخذون هذا القرآن مزماراً مهجراً، يقدمون الرجل، وما هو بأفضلهم، ولا بأفقههم إلا ليغنيهم بالقرآن غناء.

وعن النبي ﷺ قال: «إياكم وجيران الأغنياء، وعلماء الأمراء، وقراء الأسواق».

وقال بعض المتقدمين: إذا رأيت القارىء يختلف إلى الأغنياء، فاعلم أنه مراء، وإذا رأيت عالماً يختلف إلى الأمراء، فاعلم أنه أحمق.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ولم يدخلوا في الدنيا، فإذا خالطوا السلطان، ودخلوا في الدنيا، فقد خانوا الرسل فاعتزلوهم واحذروهم».

وعن مكحول رضي الله تعالى عنه قال: من تعلم القرآن، وتفقه في الدين، ثم أتى باب السلطان متملقاً إليه ومطيعاً له بين يديه، خاض في نار جهنم، بعدد خطاه.

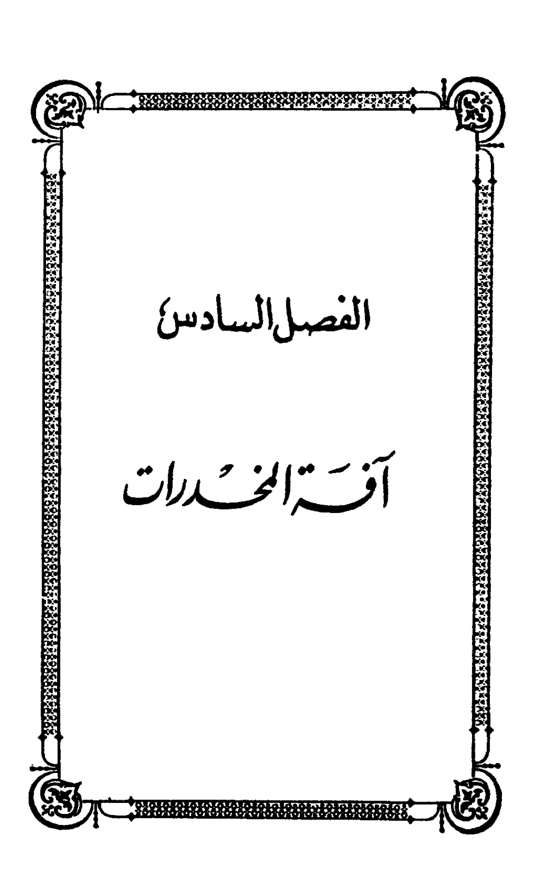
وعن ميمون بن مهران، قال: في صحبة السلطان خطران، إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك، والسلامة أن لا يعرفك.

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله، قال: لو أن رجلًا لا يخالط هؤلاء، يعني السلاطين، ولا يزيد على الفرائض، فهو أفضل من رجل يخالط السلطان، ويصوم

النهار، . ويقوم الليل، ويحج ويجاهد، ويقال: ما أقبح عالماً يقال: أين هـو؟ فيقال: عند الأمير.

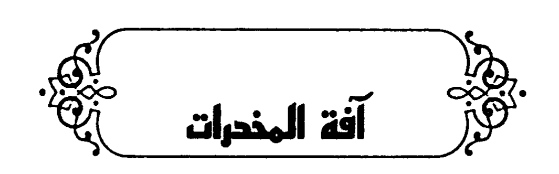
وعن عيسى بن مريم، صلوات الله وسلامـه عليهما، إنـه قال: يـا معشر العلماء زغتم عن الطريق، وأحببتم الدنيا، فكما أن الملوك تركوا الحكمة عندكم، فاتركوا ملكهم عليهم.

وروى الحسن، رحمه الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال يد الله على هذه الأمة ما لم يُعظم أبرارهم فجارهم، وما لم يرفق خيارهم بشرارهم، وما لم يمل قـرارهم إلى أمرائهم، فـإذا فعلوا ذلـك رفـع الله عنهم البـركـة، وسلط عليهم جبابرتهم، وقذف في قلوبهم الرعب وأنزل عليهم الفاقة».



## الفصل السادس

# آفة المخدرات



# آفة المخدرات

## شرف العقل ومكانته في الإسلام(١)

لقد كرم الله الإنسان وأعلى شانه وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة وسما به إلى أكبر درجات التعظيم والتكريم، وقال في شأنه:

**﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** [سورة الاسراء، الآية: ٧٠] وقد توج الله الإنسان بأفضل وسائل التفكير والإدراك وأحل له من الطيبات ما يحفظ عليه حياته ويقيم أوده ويجعله صحيحاً معافى عزيزاً كريماً، كما حرم عليه كل خبيث ضار بجسمه أو عقله أو يفقده توازنه أو يحطم شخصيته، وذلك كله حماية للإنسان الكريم على الله ووقاية لبدنه وعقله، ومن أجل أن يعيش سعيداً ويحيا كريماً كما أراد له ربه وخالقه.

ومن هذا المنطلق نجد من القواعد الأساسية العامة في الإسلام، والتي جاء بها القرآن الكريم وبينتها سنة رسول الله ﷺ، وأدركتها العقول المستنيرة لأفاضل الرجال، نجد من هذه النصوص ما يحدد الهدف من مهنة رسول الله ﷺ، وهو أنه جاء بالفطرة التي تحمل كل طيب وتحرم كل وتبعد عن الناس الشرور الآثام.

قال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم**

(١) رسالة الإمام / العدد السابع فبراير ١٩٨٦ / احذروا المخدرات/ وزارة الأوقاف.

فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٥] وما دام العقل هو نعمة الله الكبرى، فواجب الإنسان أزاءه أن يحافظ عليه بكل وسيلة مشروعة، وأن يعمله في إدراك فضائل الأمور وأن يتفكر في ملكوت السموات والأرض وفيما يعود عليه وعلى غيره بالسعادة والخير، فإذا فعل ذلك فقد أدى جانباً من شكر الله على هذه النعمة.

ولكن بكل أسف عندما تنقلب الأوضاع وينحرف العقل عن مساره ويأتي الإنسان في حالة من حالات ضعفه أو مع قرناء السوء من حوله فيتعمد أن يغيب عقله أو تخدر حواسه أو يعطل إدراكه بأي نوع من أنواع المخدرات والمسكرات فذلك هو الضلال المبين.

ومن العجيب المزعج أن تشيع في مجتمعاتنا وبين شبابنا أنواع من المسكرات والمخدرات التي يغيب معها العقل وينعدم الوعي ويختل التوازن ويسوء التفكير..

هذه المخدرات من الحشيش وغيرها مما ظهر أخيراً تحت أسماء الجواهر البيضاء من الكوكايين والهيروين وما أشبه ذلك مما سقط تحت تأثيره الكثير من أبناء الأمة وخاصة الشباب منهم بصورة مخيفة مفزعة تنذر بالخطر وتهدد كيان الأمة وتقضي على عناصر الخير فيها، لأن استعمال هذه المادة يفقد الجسم مناعته والاعضاء عملها والنفس كرامتها، ويميت الغيرة والنخوة ويدفع إلى ارتكاب كل محظور يؤدي إلى سفك الدماء وهتك الأعراض واستباحة الحرمات.

## العقل منبع الحكمة:

العقل منبع الحكمة ومصباح الهداية، ونور البصيرة، ووسيلة السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، وبه تلقى الخطاب من المولى عز وجل واستحق الخلافة في الأرض.. وبه كمل الإنسان وشرف وامتاز عن غيره من سائر المخلوقات..

ولولا العقل ما استحق الانسان ذلك التكريم الذي رفعه إلى صفوف الملائكة وسما به إلى عالم الملكوت الأعلى.. ومن أجل ذلك كان العقل مناط

التكليف في الانسان فنال بـه الجزاء واستحق العقـاب وكان الجـزاء في الدنيـا والآخرة على أساس العقل وقوة الإدراك، وهذه النعمة في الانسان فتحت له آفاق الحياة وصار يضرب في أرجاء الأرض ويغـوص تحت الاعماق ويـركب الأجواء فعدل من سيرته وحسن من مستواه وسار وراء كل جديد، وربط بين الحياة المادية والـروحية، وواصـل أبحاثـه واختـراعـاتـه في الميـادين السيـاسيـة والعسكـريـة والاجتماعية. . وتغلب على المشاكل التي تحـد من أنشطتـه وتحول بينـه وبين تحقيق أهدافه.

وعن طريق العقل اهتدى الانسان إلى معرفة ربه وخالقه وعبده وأطاعه وأثبت له الكمال والجلال، ونزهه عن النقائص والمثالب، وصدق بالرسل والأنبياء وأنهم واسطة ينقلون للناس ما أمرهم الله تعـالى به، ويحملون إليهم البشـارة بالـوعد والنذارة بالوعيد. فأعمل الناس عقولهم وفقهوا في الحلال والحرام والضار والنافع والطيب والخبيث والحسن والقبيح. .

وكلما أعمل الانسان فكره وعقله وتصرف ببصيرته ووعيه كلما حظي بالأمن ونعم بالسلام والاستقرار وساد المجتمع الذي يعيش فيه جو من الألفة والرحمة والسكينة، وأمن الناس على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وحرياتهم. .

من هنا أمر الاسلام بحفظ العقل ومنع أي اعتداء يقع عليه أو يؤدي إلى اتلافه وانتقاصه تكريماً للانسانية وتفضيلاً للبشرية وتحقيقاً للمصالح العامة التي تقوم عليها حياة الناس وهي بالاستقراء حفظ الـدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال.

والمحافظة على العقل تقضي بالحيلولة بين العقل وبين أن تناله آفة تعجزه أو تتلفه أو تجعل صاحبه مصدر شر أو أذى على المجتمع، أو يكون أداة فساد فيه، وكان من حق الشرع على العقول - دفعاً للآثام ومنعاً من الشرور - إتخاذ أسباب الحماية بالعقوبة. ومن أجل ذلك عاقبت الشريعة الاسلامية شارب الخمر ومتعاطي المخدرات أيا كان نوعها ومن أي نوع وتحت أي اسم أو وصف.

ومن الآونة الأخيرة نشطت أسواق الخمر والمخدرات وانتشرت منافذ السموم

والعقاقير وراجت تجارة الجواهر المخدرة خاصة بين الشباب والطلاب وسرعان ما سقطت الضحايا نتيجة هذه السموم التي خربت العقول ودمرت النفوس وأزهقت الأرواح وسرى ضررها وخطرها في المجتمع سريان النار في الهشيم!!

وهل من العقل والمنطق أو من الحق والصواب أن ينحدر الانسان بعقله ورشده بعد أن كرمه الله وفضله، فيدمر حياته بنفسه ويلغي عقله ولبه وهو أشرف عضو فيه؟!.. وقد ثبت أن السكر يؤدي ألى إخماد جذوة الفكر ويطفىء سراج العقل ويقتل الإرادة ويميت العزيمة ويضعف الشخصية ويذهب بالأخلاق الفاضلة ويؤدي إلى الخنوع والدياثة والاغلال وانهيار القوى وهدم بنية الجسم والبدن وفتور الاعضاء.

وجدير بالذكر أن الاسلام كثيراً ما نبه إلى قيمة العقل ومكانته، وأشاد بهؤلاء الذين يعملون عقولهم ويستخدمون ملكاتهم في النظر إلى الكون وما فيه من بديع الصنع وعظيم الخلق وجمال الابداع وتناسق الاحجام والأجرام.. فقال سبحانه:

**﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** [سورة آل عمران، الآيات: ١٩٠، ١٩١]

وقال: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** [سورة العنكبوت، الآية: ٤٣].

وقال: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾** [سورة الحشر، الآية: ٢١]

وفي السنة الصحيحة عن عبد الله بن مسعود قال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1].

ونعى القرآن على أولئك الذين ألغوا عقولهم وعطلوها عن الفكر والنظر

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٧٦.

والتأمل ولم ينتفعوا بهذه الملكات التي منحها الله لهم وكرمهم بها في الوقوف على قدرة الصانع وجلال الخالق وقوة الرازق ولم ينقادوا إلى حظائر الايمان وكمال الاسلام والإذعان للحق واليقين، بل لم يسخروا عقولهم في مجالات الحياة التي خلقوا من أجلها والعمل على استغلال الثروات والموارد الطبيعية والطاقات المتاحة من أجل سعادة الفرد وتقدم الأمم والشعوب، قال تعالى: **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾** [سورة البقرة، الآيات: ١٧٠، ١٧١]

وقال: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾** [سورة الأعراف، الآية: ١٧٩] والذي ينظر بعين البصيرة ونور الإيمان ويتأمل حاضر العالم اليوم وما طرأ عليه من أحداث وتغيرات يجد أن أكثر الأمم تقدماً ورقياً وحضارة تلك التي راحت تفتح المجالات والميادين أمام العقل وتطلق من عقاله وتزيح الستار وتكشف الحجب عنه وتحطم الحواجز والسدود وتكسر القيود والحدود أمام هذه الطاقة الهائلة من النظر والفكر والبحث والعلم فنشطت اليابان وخطت خطوات هائلة في مجال التقدم الصناعي والاقتصادي وقطعت أشواطاً طويلة في التقدم العلمي والتكنولوجيا بزّت فيه أقرانها وتفوقت على أصدقائها وأعدائها.

والحق أن الكثير من الدول المتقدمة والناهضة أخذت بزمام المبادرة في إفساح المجال أمام التقدم العلمي ـ عن طريق العقل ـ وفاقت العديد من الدول العربية والاسلامية بينما كانت هذه الدول في وقت سابق حاملة مشاعل الحضارة ممسكة بأسباب النهضة تقود العالم من حولها إلى مواقع العزة والفخار ومواطن الشرف والفضيلة والتربع على عرش التقدم الأدبي والرقي المادي والحضاري.

أليس من المؤسف والمخزي أن يتنكر الانسان لهذه النعمة العظيمة التي كرمه الله بها واختاره للخلافة في الأرض فيبدد هذه الطاقة من العقل والفكر والإدراك والوعي وراح يدمرها بالسموم والمخدرات ويطغي فيها نور الايمان

واليقين ويغلفها بطلاء من الدنس والرجس؟؟!..

أليس من العار أن يهبط المرء من قمم المجد والحضارة والرقي إلى حضيض السفه والذراية ومستنقع المجافة والفسوق والعصيان؟؟!..

أليس من الحماقة والرعونة أن ينخلع المرء من مصاف الملائكة والمقربين إلى عداد البهائم وشراذم المردة والشياطين؟؟..

وصدق الله حيث يقول: **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** [سورة الحج، الآية: ٤٦].

## حكمة التحريم:

قال الله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾** [سورة النساء، الآية: ٢٩] وقال سبحانه: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** [سورة البقرة، الآية ١٩٥].

وقال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» (١). حديث حسن.

ومن هذا المنطلق يجب أن يكون الإنسان بصيراً على نفسه فلا يفعل ما يؤذيها، ويلحق بها الدمار والهلاك، بتعاطي الخمور والمخدرات، كما يجب عليه ألا يفعل ما يضر بالآخرين بالترويج لنشر هذه السموم بين الناس حتى لا يكون جرثومة فساد في مجتمعه، لأن الخمور والمخدرات عامة تصيب متعاطيها بالأمراض القاتلة التي تفضي به إلى الموت، فلقد جاء في إحدى الإحصائيات الفرنسية في إحدى السنوات، أن الذين قتلتهم الخمر بلغ عددهم ٢٦٠٠٠ ألفاً والذين ماتوا بسبب السل ١٣٠٠٠ ألفاً فقط.

ومن ثم نجد الإسلام يحرم على المسلم أن يتناول الخمر وما أشبهها من أية مادة مسكرة أياً كان عربياً أو أجنبياً معروفاً أو مجهولاً، وأياً كانت مادتها الخام المستخلصة منها، سواء أكانت عنباً أو تمراً أو شعيراً أو براً أو حشيشاً أو مخدراً، وسواء كانت كمية التناول قليلة أو كثيرة مائعة أو جامدة أكلاً أو شرباً أو تدخيناً، إذ

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجة.

المراد في كل ذلك على المادة المسكرة أو المخدرة في ذاتها وبغض النظر عن كل ما سبق من أعراضها، وبغض النظر أيضاً عن ذات شاربها، ونوعية، ومدى استجابته لتأثير المادة من حيث كمها وكيفها. كل ذلك حرام حرمه الإسلام قرآناً وسنة وإجماعاً بصورة قطعية لا شك فيها ولا شبهة.

## مفهوم الخمر وما يندرج تحتها:

**الخمر**: كل ما خامر العقل، وهي تعم كل مسكر اتخذ من العنب أو من سواه.

وعند الفقهاء: هو المائع المسكر خاصة سواء أكان متخذاً من الثمار كالعنب والرطب والتين، أو من الحبوب كالحنطة والشعير، أو من الحلويات كالعسل وسواء أكان مطبوخاً أو نيئاً، وسواء أكان معروفاً باسم قديم: كالخمر والطلاء أو باسم مستحدث كالعرق والكونياك والشمبانيا والويسكي والبيرة والفودكة وغيرها من الأنواع والأسماء الشائعة اليوم.

لقد روي عن ابن مالك الأشعري رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليشربن أناس من أمتي الخمر ويسمونها بغير اسمها»[1].

وإذا كان القرآن الكريم قد نص على تحريم الخمر بإسمها فلأنها أم الخبائث، ولأنها مفتاح كل شر، فقد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ «لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر»[2].

إلا أن هناك أنواعاً من الأشربة عرفت بأسمائها القديمة وأنواعاً أخرى استحدثت أسماؤها فيما بعد وكلها محرمة - باتفاق الجمهور - إذ ليس التحريم منوطاً بمجرد الإسم حتى يكون تغيير الاسم مغيراً للحكم، وإنما الاعتبار بالاسكار، فإن وجد فالتحريم ثابت، سواء أسمي باسمه أو غير إلى اسم آخر.. فالاحكام تتعلق بحقيقة الأسماء ومعناها، لا بأسمائها وألقابها وقد أخبر الصادق

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود.

(٢) رواه ابن ماجة.

الأمين صلوات الله وسلامه عليه مما خصه الله تعالى بعلمه أنه سيقع في أمته، وقد وقع فعلاً، وشرب الناس الخمر بعد أن خلعوا عليها مختلف الأسماء كالطلاء والباذق، وكالبيرة والويسكي والبراندي والشمبانيا وغير ذلك مما شربه الناس قديماً ويشربونه في هذه الأيام مستحلين لها متأولين فيها أو مسترسلين في شربها استرسالهم في الحلال غير مبالين بحرمتها وهي في حقيقة أمرها خمر يسكر كثيرها، فقليلها حرام، وإن سميت بمختلف الأسماء، بل قد تكون حرمتها أشد من حرمة الخمر.

ويقول الشيخ محمود شلتوت:

يستنتج بعض الناس ألواناً من النبيذ المسكر زاعمين أنه ليس من الخمر المحرمة، كما يستنتج آخرون تناول المواد المعروفة بالمخدرات مستندين إلى مثل هذا الزعم، فما رأي الإسلام؟

أمران يرتبطان بالخمر وأحكامه تمام الإرتباط، ولا بد للمسلمين من معرفتهما حتى يكونوا على بينه من أمر دينهم بالنسبة لما تلوكه بعض الألسنة المنحرفة ذات القلوب الفاسدة والأفكار الزائغة ـ فيما يتعلق بمعنى الخمر وملحقاته ـ إما جهلاً وانحرافاً في الجهالة بأساليب التحريم القرآنية، والقواعد التشريعية في الإسلام، وإما محاولة لطمس الحقائق الدينية الواضحة عن طريق الخداع وإلباس الحق بالباطل، انتزاعاً للمسلمين من دينهم وطمساً لشعائرهم وتحريضاً لهم على اقتحام حرمات الله باسم الفهم والرأي، وما هو في واقعه إلا كيد للإسلام وخديعة للمسلمين.

وأول هذين الأمرين هو أن الخمر في لسان الشرع واللغة اسم لكل ما يخمر العقل ويغطيه، ولا عبرة بخصوص المادة التي تتخذ منها فقد يكون من العنب، وقد يكون من غيره، والأحاديث الصحيحة الواردة في الخمر واضحة في أن ذلك هو معناها «كل مسكر حرام»، إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن العسل خمراً، وأنا أنهي عن كل المسكر.».

بين الرسول معنى الخمر هكذا، وهكذا فهم الأصحاب من كلمة خمر،

وبادر - حين نزل تحريمها المؤكد بإساليب التحريم القوية المتعددة - كل من كان عنده شيء منها أراقه دون أن ينظر إلى المادة التي اتخذ منها، وهكذا خطب عمر رضي الله عنه قال:

«أيها الناس: إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمس: من العنب، والتمر، العسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل».

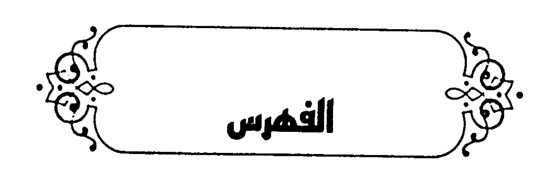
وكان ذلك في محضر كبار الصحابة وغيرهم، ولم ينكر عليه أحد منهم.

ومن هنا نعلم أن الذين يعلنون في مجالسهم الخاصة انقياداً لشهواتهم، وعبثاً بالدين والعقول، أن المحرم هو المتخذ من العنب، أو منه ومن التمر لا غير، وأن المتخذ من غيرهما لا يحرم تناوله، قوم لا يكترثون بلغة الألفاظ ودلالتها، ولا ببيان الرسول ولا يركنون إلى فهم أصحابه الذين تحدثوا عما شاهدوا وسمعوا، وهم بعد هذا كله يغالطون أنفسهم، ويخدعون غيرهم في سر تحريم الخمر التي حرمها الله لأجله، ودين الله بين واضح، ولا ينبغي أن تتخذ آياته سبيلاً للهو واللعب، وليس تحريمك الخمر من التكاليف التعبدية التي لا يدرك المؤمن سر تكليفه بها. وإنما هو من التكاليف المعقولة التي تلمس الإنسان سر تحريمها ويراه واضحاً في نفسه وفي غيره عقلاً، وصحة ومالاً، وكرامة.

أما الأالأمر الثاني من الأمرين - موضوع الفتوى - فهو أن الإسلام حين قرر حرمة الخمر وعقوبة شاربها، لم ينظر إلى أنها سائل يشرب، وإنما نظر إلى الأثر الذي تحدثه في شاربها من زوال العقل الذي يفسد عليه إنسانيته، ويسلبه مكانة التكريم التي منحه الله إياها، ويفسد عليه أيضاً ما يجب أن يكون بينه وبين الناس من صلات المحبة والصفاء، ويطوع له مع هذا انتهاك الأعراض وقتل النفس، ويعكر عليه صفو المعرفة بالله، الناشئة عن مراقبته وتذكر عظمته. وذلك عنوان أضرارها الروحية والإجتماعية التي حرمت لأجلها، كما تضمنها وأشار إليها بأساليب التحريم المتعددة قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل

أنتم منتهون﴾ [سورة المائدة، الآيات: ٩٠، ٩١].

وقد كشف البحث الإنساني، في ضوء هذا الوحي الإلهي الكريم، أن للخمر مع هذه الأضرار أضراراً أخرى أجمع عليها الأطباء في الكبد والمعدة، وسائر الأجهزة، وأن هذه الأضرار كان لها في القضاء على الإنسان أشد ما عرف للأمراض الفتاكة من القضاء عليه.



الفهرس

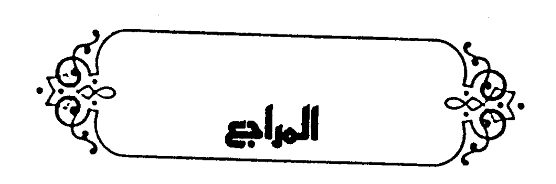
الفصل الرابع



الفصل الخامس



الفصل السادس



# المراجع


* القرآن الكريم
* إحياء علوم الدين — الإمام أبو حامد الغزالي - دار القلم - بيروت
* مدارج السالكين — إبن قيم الجوزية
* إغاثة اللهفان — إبن قيم الجوزية
* تنبيه الغافلين — السمرقندي - دار القلم - بيروت
* تلبيس إبليس — إبن الجوزي - دار القلم - بيروت
* عالم الجن والشياطين — عمر سليمان الأشقر - دار القلم - بيروت
* السعادة كما يراها المفكرون — سيد صديق عبد الفتاح
* الحسد والحاسد والمحسود — عبد الخالق العطار
* الزهد — القرطبي .. تحقيق مجدي فتحي السيد
* رابعة العدوية — النبوي جبر سراج الدين وعبد السلام عبد الحليم محمد
* احذروا المخدرات — رسالة الإمام، العدد السابع / فبراير ١٩٨٦ وزارة الأوقاف المصرية